تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

سورة المؤمنون وسورة النور

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

12 صفر 1448 الموافق 26 يوليو 2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع ...." . . .. **الصفحة**.

سور المؤمنون 4

سورة النور 37

المراجع 84

سورة المؤمنون

تسمية السورة

(سورة المؤمنون) وهو الاسم المشهور أو الأكثر شهرة في المصاحف وكتب التفسير.

وقد يطلق عليها أسماء أخرى مثل (سورة قد أفلح المؤمنون) بالآية الأولى منها، وهذ قد يختصر إلى (سورة قد أفلاح)، أو (سورة الفلاح).

وهي سورة مكية باتفاق، وقيل أجمع المفسرون على أن سورة المؤمنون نزلت في مكة المكرمة قبل الهجرة، ومما يؤكد مكيتها أنها تعنى بأصول العقيدة والتوحيد.

سبب النزول

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نَزَلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوَحْيُ نسمَعُ عند وجهِهِ كدوِيّ النّحْلِ، فمكثنا ساعة، فاستقبلَ القِبْلَة ورفع يديه، فقال: اللهم زِدْنَا ولا تنقُصنا، وأكْرِمْنا ولا تُهِنّا ولا تحرمنا، وآثِرْنا، ولا تُؤْثِر علينا، وارْضَ عنا، ثم قال: لقد أُنْزِلَ علينا عشرُ آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ (قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ) عشرُ آيات [1].

بسم الله الرحمن الرحيم

*(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ(17) وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ

1 - أخرجه الترمذي (3173)، وأحمد (223)، والنسائي في ((الكبرى)) (1443) واللفظ لهم، وحسن البغوي إسناده في شرح السنة (ج3/ص154).

لِّلْآكِلِينَ (20) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ(22))

الدرس الأول: هذه الآيات الكريمات ديباجة ومطلع سورة المؤمنون؛ تأخذ بمجامع القلوب وتُنسّق السلوك والوجدان، حيث تتكاتف فيها المعاني الإيمانية، والتشريعات الأخلاقية، والدلائل الكونية، والأطوار الخلقية في سياق بياني معجز.

*﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: (قَدْ) حرف تحقيق وتأكيد، يدخل على الماضي ليفيد قطعية وقوع الفعل ورسوخه. (أَفْلَحَ) من الفَلاَح، وأصله في اللغة الشق والقطع؛ ومنه "الفَلاّح" الذي يشق الأرض. والفلاح هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المكروب، الخلود في النعيم.

إشراقة بلاغية: افتتحت السورة بالجملة الفعلية المؤكدة بـ (قد) للإعلان عن حقيقة سرمدية ناجزة. وجيء بالخبر على صيغة الماضي لتحقيق وقوع الفلاح، فهو قد تم وحصل وانتهى.

اللمسة البيانية والتفسيرية: ينبه ابن عاشور – رحمه الله - إلى أن تعريف "الْمُؤْمِنُونَ" باللام للجنس المستغرق للخلق المتصفين بالإيمان الصادق، كما يذكر البقاعي – رحمه الله - أنّ مناسبة هذه الآية لما قبلها هي الإشارة إلى أن مدار السعادة والظفر النهائي في الدارين مقصور على أهل هذا الوصف.

*﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: الخشوع: السكون والاطمئنان وغض البصر والانكسار بين يدي الله، وأصله سكون الجوارح الناتج عن امتلاء القلب بالهيبة والإجلال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل فصلى ثم جاء فسلم على رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم فرد رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم عليه السلام وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه فقال له رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم وعليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرار فقال الرجل والذي بعثك بًالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم اجلس حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها فإذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هذا شيئا فإنما انتقصته من صلاتك وقال فيه إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء[1].

1 - أخرجه البخاري (757)، باختلاف يسير، ومسلم (397)، بلفظ مقارب، وأبو داود (856) وهذا لفظه.

وهذا الحديث يسمى حديث المسيء صلاته، وله عدة روايات أخرى، وأحاديث أخرى تشبهه مثل حديث رفاعه، كل التركيز فيه على الاطمئنان في الصلاة حتى يرجع كل فقار مكانه، وبالنسبة للمأموم لا بد أن يتابع الإمام وتكون المتابعة بعده.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّما جُعِلَ الإمامُ ليُؤتَمَّ بهِ، فإذا كبَّرَ فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصِتوا، وإذا قال غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ فقولوا: آمينَ، وإذا ركعَ فاركَعوا، وإذا قال: سمِعَ اللهُ لمَن حمِدهُ، فقولوا: اللَّهمَّ ربَّنا ولكَ الحمدُ، وإذا سجدَ فاسجُدوا، وإذا صلَّى جالسًا فصلُّوا جلوسًا [1].

عن البراء بن عازب رضي الله عنه: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا رفع رأسَه من الرُّكوع لم يحْنِ أحدٌ منَّا ظهرَه حتَّى يضَعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم [2].

وعن عائشة رضي الله عنها: سَألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَنِ الِالتِفاتِ في الصَّلاةِ؟ فقال: هو اختِلاسٌ يَختَلِسُه الشَّيطانُ مِن صَلاةِ العَبدِ [3]..

ولعل معنى حديث عائشة هذا رضي الله عنها يشمل الالتفات بالقلب بالخواطر، وأمّا الاختِلاسُ فهو الأخْذُ والخطْفُ بسرعةٍ، ومعناه: أنَّ الالتِفاتَ سَرِقةٌ يَسرِقُها الشَّيطانُ ويَخطَفُها مِن صلاةِ العَبدِ المُسلِمِ؛ لِيَشْغَلَه عن الخُشوعِ والخُضوعِ فيها، فيَنقُصَ أجرُه وثَوابُه، ورُبَّما أدَّى به إلى ما هو أكثَرُ مِن ذلك، فتَبطُلُ صَلاتُه كُلُّها، وفي هذا إشارةٌ إلى النَّهيِ عن الالْتِفاتِ في الصَّلاةِ.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: أنَّهُ رأى رجلاً يصلِّي فطفَّفَ، فقالَ لَهُ حذيفةُ: منذُ كم تصلِّي هذِهِ الصَّلاةَ؟ قالَ: منذُ أربعينَ عامًا، قالَ: ما صلَّيتَ منذُ أربعينَ سنةً، ولو متَّ وأنتَ تصلِّي هذِهِ الصَّلاةَ لمتَّ على غيرِ فطرةِ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ ثمَّ قالَ: إنَّ الرَّجلَ ليخففُ، ويتمُّ ويحسن [4].

ولفظ البخاري: أن حذيفة رضي الله عنه رَأى رَجُلًا لا يُتِمُّ رُكوعَه ولا سُجودَه، فلَمَّا قَضى صَلاتَه قال له حُذَيفةُ: ما صَلَّيتَ؟ قال: وأحسِبُه قال: لو مُتَّ مُتَّ على غيرِ سُنَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم [5].

---

1 - أخرجه ابن ماجه (846) واللفظ له، وأخرجه البخاري (722) مطولاً باختلاف يسير، ومسلم (414) باختلاف يسير، دون قوله: "وإذا قرأ فأنصتوا". وزيادة "وإذا قرأ فأنصتوا" ورد في صحيح مسلم(404) .

2 - أخرجه البخاري (811)، ومسلم (474)، وأبو داود (621) بنحوه، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (347/4) واللفظ له.

3 - أخرجه البخاري (751)، من أفراد البخاري على مسلم.

4 - أخرجه النسائي (1312) واللفظ له، وأحمد (23258) بنحوه

5 - أخرجه البخاري (389) واللفظ له، وأحمد (23360) بنحوه

ورد على موقع الإسلام سؤال وجواب السؤال التالي: هل صحيح بأن الصلاة التي ليس فيها خشوع تام لله عز وجل لا يقبلها منا أم لا؟

فكان الجواب: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: المطلوب من المصلي أن يخشع في صلاته، ويقبل عليها، لأن الله تعالى قال: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)، فالإقبال على الصلاة والخشوع فيها من أهم المهمات وهو روحها، فينبغي العناية بالخشوع والطمأنينة في الصلاة؛ في سجوده، في ركوعه، بين السجدتين، بعد الركوع حينما يعتدل ويخشع ويطمئن، ولا يعجل.

وإذا أخل بالخشوع على وجه يكون معه النقر في الصلاة وعدم الطمأنينة تبطل الصلاة.

أما إذا كان يطمئن فيها ، ولكن قد تعتريه بعض الهواجس وبعض النسيان هذا لا يبطل الصلاة ، لكن ليس له من صلاته إلا ما عقل منها وما خشع فيه وأقبل عليه يكون له ثواب ذلك ، وما فرط فيه يفوته ثوابه ، فينبغي للعبد أن يُقبل على الصلاة ويطمئن فيها ويخشع فيها لله عز وجل حتى يكمل ثوابه ، ولكن لا تبطل إلا إذا أخل بالطمأنينة مثل إذا ركع ركوعاً ليس فيه طمأنينة فيعجل ولا تخشع الأعضاء ، والواجب أن يطمئن حتى يرجع كل فقار إلى مكانه ، وحتى يتمكن من قول: سبحان ربي العظيم في الركوع ومن قول : سبحان ربي الأعلى في السجود ، وحتى يتمكن من قول : ربنا ولك الحمد ، إلى آخره بعد الرفع من الركوع ، وحتى يتمكن بين السجدتين أن يقول : رب اغفر لي ، هذا لابد منه.

ولما رأي النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً لم يطمئن في صلاته، بل كان ينقرها، أمر الرجل أن يعيد وقال: (صَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ)، والطمأنينة من أهم الخشوع، وهي خشوع واجب في الصلاة، في الركوع، في السجود، بين السجدتين، وحال الاعتدال من الركوع، هذا يقال له: طمأنينة، وتسمى خشوعاً أيضاً، لا بد من هذه الطمأنينة حتى يرجع كل فقار إلى مكانه، إذا ركع اطمأن حتى ترجع العظام إلى محلها، وكل فقار إلى مكانه ، وإذا رفع اطمأن وهو واقف بعد الركوع ، وإذا سجد يطمئن ويهدأ ولا يعجل حتى يعود كل فقار إلى مكانه" انتهى[1].

الأسلوب والتركيب: قدم الظرف والمتعلق ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ على الخبر ﴿خَاشِعُونَ﴾، لإفادة الاهتمام والصرامة؛ أي أن خشوعهم ليس عارضًا خارج الصلاة بل هو مقيم ومستقر في ذات الصلاة، فالصلاة ظرف خشوعهم.

يرى ابن القيم – رحمه الله - أنّ الصلاة روح وجسد؛ وجسدها أفعالها وظاهرها، وأما روحها فهو الخشوع وحضور القلب.

---

1 - انظر فتاوى ابن باز رحمه الله في نور على الدرب (ج1/ص774)، والإسلام سؤال وجواب (132081).

ويشير سيد قطب – رحمه الله - إلى أنّ البدء بالخشوع في الصلاة بين صفات الفلاح يعكس القيمة المحورية للصلة المباشرة بالله، حيث يتجرد الوجدان من شواغل الدنيا ويهدأ روع النفس.

*﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: كل كلام أو فعل لا خير فيه فهو لغو، ولا فائدة تجنى في الدين أو الدنيا من اللغو. والإعراض هو: التولي بالصفح والجانب والابتعاد بالكلية.

قَالَ عَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: عَنِ الشِّرْكِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: عَنِ الْمَعَاصِي. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: عَنْ كُلِّ بَاطِلٍ وَلَهْوٍ وَمَا لَا يَحِلُّ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. وَقِيلَ: هُوَ مُعَارَضَةُ الْكَفَّارِ بِالشَّتْمِ وَالسَّبِّ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) [الْفُرْقَانِ:72]، أَيْ: إِذَا سَمِعُوا الْكَلَامَ الْقَبِيحَ أَكْرَمُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِيهِ[1].

الأسلوب والتناسق: عدّى الفعل بحرف الجر (عَنْ) وليس (إلى)، فقال: ﴿عن اللغو مُعْرِضُونَ﴾ للتأكيد على الترفع التام والصد الجسدي والنفسي عن مواطن اللغو.

يعلق محمد قطب – رحمه الله - بأن المسلم صاحب رسالة وهدف سامٍ، ووقته أثمن من أن يُبدد في الفراغ واللغو، فالترفع عن اللغو هو صيانة للطاقة الروحية والعقلية.

وقرأت عن يقول الحسن البصري رحمه الله أنه قال: أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم.

ونقل عن عامر بن قيس من التابعين: أن رجلاً قال له: تعال أكلمك، قال: أمسك الشمس.

قلت: ولعله استفاد ذلك من حديث أبي هريرة رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: غزا نبيٌّ مِن الأنبياءِ، فقال لقومِه: لا يتبَعُني رجُلٌ قد ناكَح امرأةً وهو يُريدُ أنْ يبنيَ بها ولا رفَع بناءً ولم يرفَعْ سقفَها ولا اشترى غنَمًا وهو ينتظرُ ولادَها فغزا فدنا إلى الدَّيرِ حينَ صلَّى العصرَ أو قرُب مِن ذلك فقال للشَّمسِ: إنَّكِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ اللَّهمَّ احبِسْها عليَّ شيئًا فحُبِستْ حتَّى فتَح اللهُ عليه[2].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾: "الزكاة" تأتي بمرادفين: تطهير النفس والنماء، وتأتي بمعنى إيتاء المال الواجب لأصناف الزكاة الثمانية.

---

1 - البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص801).

2 - أخرجه البخاري (3124)، ومسلم (1747) بلفظ مقارب، وهذا لفظ صحيح ابن حبان (4808).

إشراقة بلاغية: التعبير بـ ﴿فَاعِلُونَ﴾ فيه ملمح بلاغي بديع؛ فالفعل يدل على المباشرة والحركة الدؤوبة، ولتأكيد أن الزكاة طاعة عمل حركة وتطهير كلي للروح والمال.

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - أن الزكاة هنا تتناول زكاة النفوس بالتوحيد والأخلاق الكريمة وزكاة الأموال، لأنّ الآية مكية ومطلق الزكاة تشمل تطهير الروح وتزكيتها.

ويعاضده ابن عاشور في أنّ إسناد الفعل للزكاة يدل على جعل التزكية منهج حياة مستمر.

*﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾: الحفظ: الصيانة والوقاية والمنع من الاستعمال في غير ما أذن الله به.

جاءت هذه الصفة بعد الصلاة والزكاة للتركيز على شأن ضبط الغريزة وضبط المجتمع الأخلاقي، وأنّ ذلك جزء لا يتجزأ من الإيمان، فلا فلاح بلا استقامة سلوكية وخلقية.

*﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾: إشراقة الاستثناء البلاغي: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ استثناء من عموم الحفظ والإعراض؛ وعدي بـ (عَلَى) لتضمنه معنى الباء أو التضمين البلاغي (أي غير مأخوذين أو غير معاتبين على أزواجهم).

التفسير والسياق: تحديد المنفذ المشروع للشهوة الإنسانية وضبطها في إطار السكن والمودة والمسؤولية الشرعية، نفيًا للملامة والإثم.

*﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾: ﴿الْعَادُونَ﴾: جمع عادٍ، وهو المعتدي المتجاوز للحدود الشرعية والفطرية.

اسم الإشارة ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ للصلابة والتمييز، وجاء بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ للحصر والتوكيد؛ أي هم المتجاوزون لحصر الفطرة والحلال لا غيرهم.

*﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾: الجمع في ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ لتعدد أشكال الأمانات (بين العبد وربه، وبين العبد والناس)، والإفراد في ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ لأن العهد جنس يشمل كل موثق وذمة. (رَاعُونَ) من الرعاية: الحفظ والقيام على الشيء بإصلاح وتعهد.

يوضح ابن القيم – رحمه الله - أنّ الأمانة تشمل الدين كله والعهود مع الخلق، ورعايتها هي ركيزة بناء المجتمعات الفاضلة.

ويذكر سيد قطب – رحمه الله - أنّ الأمانة والعهد هما قوام الحياة البشرية، وبدونهما تنهار الثقة وتتفكك العرى الاجتماعية.

*﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ إشراقة السر البلاغي والسياقي: بُدئت الصفات بالصلاة ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ وخُتمت بالصلاة ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾!

الافتتاح: كان عن الخشوع (روح الصلاة داخلها)، والختام: كان عن المحافظة (أوقاتها، أركانها، وإقامتها في المجتمع).

وجاءت بجمع التكسير ﴿صَلَوَاتِهِمْ﴾ لبيان وجوب المحافظة على جميع الصلوات الخمس في أوقاتها المحددة.

*﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، التعبير بالوراثة: ﴿يَرِثُونَ﴾ التعبير بالإرث يشي بتمكنهم المستحق والمؤكد من الفردوس، كأنها آلت إليهم بحق لا نزاع فيه، مثلما يؤول الإرث إلى الوارث.

إشراقة بلاغية: ﴿الْفِرْدَوْسَ﴾ أعلى الجنان وأوسطها، واستخدام ضمير الفصل ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لتأكيد بقائهم السرمدي الذي لا ينقطع ولا يحول.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن آمَنَ باللهِ وبرَسولِه، وأقامَ الصَّلاةَ، وصامَ رَمَضانَ؛ كان حَقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجَنَّةَ، جاهَدَ في سَبيلِ اللهِ، أو جَلَسَ في أرضِه التي وُلِدَ فيها، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، أفَلا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قال: إنَّ في الجَنَّةِ مِئةَ دَرَجةٍ، أعَدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ، ما بينَ الدَّرَجَتَينِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سَألتُمُ اللهَ فاسألوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجَنَّةِ وأعلى الجَنَّةِ -أُراه- فوقَه عَرشُ الرَّحمَنِ، ومِنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّةِ [1].

*﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾، أي: ولد آدم، ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾، الانتقال والسياق: بعد ذكر الفلاح الأخلاقي والإيماني، ينقلنا السياق إلى أدلة القدرة الإلهية في خلق الإنسان لتأكيد مبدأ البعث والنشور وإظهار عظمة الخالق.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: السلالة صفوة الماء، وفي العامية السلالة ما بقي يجري من الماء إذا صرف معظمه للتجاه وبقي منه القليل في اتجاه آخر، أو الماء القليل الجاري، أصغر من الجدول.

﴿مِّن طِينٍ﴾ يعني طين آدم عليه السلام، فالسلالة تولدت من طين خلق آدم عليه السلام منه [2].

---

1 - أخرجه البخاري (2790)، وهذا لفظه، والترمذي (2530) باختلاف يسير، وابن ماجه (4331) مختصراً، وأحمد(22087) .

2 - انظر: تهذيب تفسير البغوي (معلم التنزيل) (ص803).

*﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، التدرج الأسلوبي: حرف التراخي (ثُمَّ) يوضح المسافة والطور الجديد لنشأة الذرية.

إشراقة بلاغية: ﴿قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وصف الرحم بـ "القرار" لكونه يستقر فيه التخليق، ووصفه بـ "المكين" لكونه مكنًا حريزًا محميًا في حوض المرأة يحفظ الجنين من العوارض الخارجية.

*﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

إشراقة بلاغية في البيان الإعجازي: التعقيب بالفاء ﴿فَخَلَقْنَا﴾ في المراحل المتتابعة للتحول الحيوية (النطفة فـ العلقة فـ المضغة ثمّ العظام فـ الكسوة باللحم) يشير إلى سرعة النقلة الحيوية وتتابع الأحداث بدقة متناهية.

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾: تشبيه وبيان دقيق، فاللحم (العضلات) يحيط بالعظام كالكشوف واللباس.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾: جاءت بـ (ثُمَّ) لإفادة التباين العظيم بين المرحلة المادية الجسدية وبين نفخ الروح وحلول العقل والإدراك والوعي.

التعقيب بالتسبيح: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ختام يتسق مع العظمة المشهودة في التخليق والإتقان.

*﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾، لاحظ: لقد طوى الحياة الدنيا جميعها، مرت في لحظة.

التأكيد والتدرج: في الموت جاء التأكيد بالجملة الاسمية والمؤكدات ﴿إِنَّكُم... لَمَيِّتُونَ﴾ لرفع كل شبهة غفلة، واستحضار الحقيقة الكبرى التي يفر منها الإنسان.

في البعث جاء التعبير بالجملة الفعلية والمفعل المبني لما لم يسم فاعله ﴿تُبْعَثُونَ﴾ لتأكيد قهر القدرة الإلهية وسهولة إعادتهم للحساب والجزاء كما بدأ تخليقهم أول مرة.

*﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾، السياق والارتقاء: انتقال من الآفاق الإنسانية الداخلية إلى الآفاق الكونية العلوية.

وهذا قريب من قوله تعالى: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:57].

﴿طَرَائِقَ﴾ جمع طريقة، وهي السموات الطباق، لأن بعضها فوق بعض كالطرق.

التعقيب والتدبر: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي: كنا لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم.

طمأنة وإحاطة؛ فالذي خلق هذه السموات العظام لا يعزب عنه رزق خلائقه ولا ينسى تدبير أمورهم، وحفظهم.

*﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾.

إشراقة بلاغية: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار وميزان دقيق ملائم لحاجة الكائنات دون طوفان يغرق ولا شح يملك.

﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ التعبير بـ "إسكان" الماء يصور المياه الجوفية والأنهار والآبار كأنها كائنات حية تتخذ الأرض مسكناً قراراً لإحياء التربة.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ تذكير بالنعمة وحذر من زوالها، لإبراز كمال القدرة والهيمنة.

ولقد أذهب الله بنعيم سبأ فقال: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:16]، وقوم نوح فقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:11].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: كانَ مِن دُعاءِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن زَوالِ نِعمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عافيَتِكَ، وفُجاءةِ نِقمَتِكَ، وجَميعِ سَخَطِكَ [1].

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾.

التفصيل والامتنان: تخصيص "النخيل والأعناب" لأنها أعلى ثمار العرب والبلدان الدافئة قاطبة نفعاً وغذاءً وحلاوة.

البيان والجمال: تخصيص شجرة الزيتون ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾، ووصف ما تخرجه بـ ﴿الدُّهْنِ﴾ (الزيت الصافي للوقود والإضاءة والعلاج) و﴿صِبْغٍ﴾ (الإدام والغموس للأكل)، مظهرًا التنوع النفعي والمذاقي لهذه الشجرة المباركة.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

الاستدلال والاعتبار: انتقال من عالم النبات والمياه إلى عالم الحيوان والتذليل.

---

1 - أخرجه مسلم (2739) من أفراد مسلم على البخاري.

التناغم السياقي والتشبيه: الإنعام باللبن الخالص الخارج من بين فرث ودم في أحشاء الأنعام.

الجمع بين سفن البر ﴿وَعَلَيْهَا﴾ (الأنعام كالإبل) وسفن البحر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، ليعلم الإنسان أن تذليل الدواب وتسخير الفلك في المَخر البحري هما من مشكاة رحمة الله وقدرته الواحدة.

في سورة الغاشية قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:17]، بينما هنا الأنعام عموماً؟

يركز شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - على أن آيات الأنعام والإبل هنا "آيات دالة على الخالق". أمّا في الغاشية فجاءت آية خلق الإبل للدلالة على "الربوبية والقدرة" (الخلق البديع)، وفي المؤمنون جاءت الإنعام للدلالة على "الإلهية والرحمة" (النعمة المقتضية للعبادة).

ويمد ابن القيم – رحمه الله - هذا الخيط ليوضح كيف يمتن الله بـ (اللبن) الخارج من بين فرث ودم، خالصاً سائغاً، ليرى الإنسان لطيف صنع الله في معامل التحويل الحيوية داخل جسم الأنعام، ويرى في الركوب تذليلاً لحيوان ضخم ينقاد للطفل الصغير.

أما الطبري – رحمه الله – فينقل في تفسيره أثر شريح القاضي عندما كان يقول: "اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت"، ليؤكد أن السلف فهموا آية الغاشية على أنها دعوة عملية للمعاينة البصرية الموصلة لليقين الإيماني بالبعث [1].

بينما آية المؤمنون تذكرهم بوجوب أداء شكر النعم وصيانتها من الكفران. ويرى محمد قطب – رحمه الله - (في ظلال منهج التربية الإسلامية) أن الآيتين تخاطبان الفطرة البشرية بطريقتين: الأولى (الغاشية) تكسر "بلادة الألفة" تجاه الكائنات من حولنا وتدفعنا لإعادة اكتشاف معجزات الخلق، والثانية (المؤمنون) تربط قلب المؤمن بالكون برباط "المصلحة والرحمة المشتركة"، فلا ينظر المؤمن للأنعام كآلات جامدة بل كمسخرات بأمر الله لخدمته، فيمتلئ قلبه حباً لخالقها وشكراً له.

الخلاصة والتكامل الأسلوبي والسياقي للنص: هكذا تنتقل الآيات بأسلوب نظمي بديع: من استقامة الروح والجوارح (صفات المؤمنين ومآلهم الفردوس)، إلى بدايات الخلق الإنساني الدقيق (أطوار الأجنة والموت والبعث)، إلى عظائم الخلق الكوني والبيئي (السماء، الماء، النبات، والحيوان).

---

1 - أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ن:310هـ): جامع البيان في تأويل آي القرآن (ج24/ص388)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة (د.ت).

لتصوغ في النهاية لوحة إيمانية شمولية توقظ العقل، وتصل القلب بالخالق العظيم سبحانه.

*(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23)فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۙ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ(27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (34) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (35) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (39) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (40) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ(42) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ(44))

هذه الآيات في هذا الدرس الثاني من سورة المؤمنون ملحمة سياقية متماسكة تنبض بالصراع الأبدي بين حقيقة التوحيد الناصعة وشبهات المَلإ الشركية. وتتجلّى فيها سنّة الله في الاستخلاف والابتلاء، والرد والمصير المحتوم.

المقطع الأول: قصة نوح عليه السلام والتأسيس لسنّة التكذيب: *﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

إشراقة بلاغية: افتتح التكليف باللام ولقد المقيدة بالتحقيق {وَلَقَدْ} لتأكيد الوقوع والتذكير بالعمق التاريخي لرسالة التوحيد. كما أنّ النداء التوددي (يَا قَوْمِ) بإضافة نوح عليه السلام قومه الكفار إلى نفسه استعطافاً لهم وتأليفاً لقلوبهم.

يقول ابن عاشور – رحمه الله - في التحرير والتنوير: الجملة الاستفهامية ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ جاءت مسبوقة بالفاء لتفريع التقوى على استحقاق الله وحده للعبادة، إنّ عدم التقوى بعد ظهور المقتضي (ألاّ إله غيره) غفلة غير مبررة.

*﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾

إشراقة في بلاغة الأسلوب: تتجلى هنا مغالطة المَلَأ (أشراف القوم وأصحاب المصالح). استخدموا أسلوب الحصر والقصر ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لتجريد نوح من مقام النبوة، ثم ألقوا التهمة النفسية الجاهزة: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ ، أي: يطلب السيادة والرئاسة.

ينبه سيد قطب رحمه الله (في في ظلال القرآن) إلى نفسية الطغيان والمَلإ؛ فهم يفسرون كل دعوة إلى الله بحسابات السلطة والنفوذ التهمة الشديدة السطحية، قائلين: إنه يريد العظمة والترأس! ثم يحتجون بالتاريخ الموروث ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ليكون الموروث السائد حاكماً على الحق المطلق.

*﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، وفي هذا تنبيه ومواساة للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت:43]، أو أنّ الرسل من قبله قد أوذوا بأكثر منه،

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا كان يَومُ حُنَينٍ آثَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُناسًا في القِسمةِ، فأعطى الأقرَعَ بنَ حابِسٍ مِئةً مِنَ الإبِلِ، وأعطى عُيَينةَ مِثلَ ذلك، وأعطى أُناسًا مِن أشرافِ العَرَبِ فآثَرَهم يَومَئذٍ في القِسمةِ، قال رَجُلٌ: واللهِ إنَّ هذه القِسمةَ ما عُدِلَ فيها، وما أُريدَ بها وجْهُ اللهِ، فقُلتُ: واللهِ لَأُخبِرَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأتَيتُه فأخبَرتُه، فقال: فمَن يَعدِلُ إذا لَم يَعدِلِ اللهُ ورَسولُه، رَحِمَ اللهُ موسى قد أوذيَ بأكثَرَ مِن هذا فصَبَر[1].

التدرج الأسلوبي في الطعن؛ بدأوا بـ "بشر مثلكم" (استبعاد) ثم انتقلوا إلى اتهامه بالسعي لطلب السلطة (شبهة أخلاقية) ثم انتهوا إلى اتهامه بالجنون ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ في محاولة مستميتة للإسقاط الكلي لأهليته عليه السلام.

إشراقة بلاغية: التعبير بـ ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أصلح ما يقال في حق المريض أو المفتون بالانتظار لعلّه يرجع أو يموت؛ وهو محاولة لتنفير العامة وازدرائه وتهميش كلمته.

*﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، هكذا كما طوى سني الحياة الدنيا في خلق حياة الإنسان يطوي هنا سنين نوح الطوال، في تلميح إلى أنه سوف ينسى تلك المعاناة

1 - أخرجه البخاري (3150)، مسلم (1062).

طوال الف سنة إلا خمسين عاما، وإنما سيظل خائفا من دعائه عليه كما في حديث نفسي نفسي.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يُؤْتَى بأنعمِ أهلِ الدنيا من أهلِ النارِ يومَ القيامةِ، فيُصْبَغُ في جهنمَ صَبْغَةً، ثم يقالُ له: يا ابنَ آدمَ هل رأيتَ خيرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ويُؤْتَى بأَشَدِّ الناسِ بُؤْسًا في الدنيا من أهلِ الجنةِ، فيُصْبَغُ في الجنةِ صَبْغَةً، فيقالُ له: يا ابنَ آدمَ! هل رأيتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا رَبِّ! ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ[1].

الأسلوب والإيجاز: اقتضب نوح عليه السلام الدعاء فلم يدعُ عليهم بخصومة شخصية، بل قال: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (أي بسبب تكذيبهم للحق الذي أرسلتني به).

إضاءة: يلفت ابن القيم – رحمه الله - النظر إلى أن الرسل لا ينتصرون لأنفسهم بل لدين الله، وحينما تُسد منافذ الحوار البشرية تكون الاستعانة بالرب تعالى هي الملجأ الوجودي الوحيد.

*﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۙ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

البيان والتشبيه المكنى: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ تصوير لغوي جميل لحفظ الله ورعايته وتعليمه طريقة الصنع.

التحليل اللغوي: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ تشبيه بليغ ناصع -أو ما يسميه البلاغيون استعارة- لاندفاع الماء بكثرة وشدة من أبعد المواضع عن الماء (التنور وهو موضع الخبز) بفوران الماء في قدر الطبخ.

يذكر البقاعي في (نظم الدرر) تناسب الآية مع مقصود السورة (إثبات الفلاح للمؤمنين والهلاك للكافرين)؛ فالله نهاه عن الشفاعة للظالمين – وفيهم ابنه وزوجته - ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لأن الحكم الإلهي قطع بهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بالتمكين المطلق للجملة الاسمية والمؤكدات.

*﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

1 - أخرجه مسلم (2807) باختلاف يسير، وهذا لفظ صحيح الجامع للألباني (8000).

إشراقة بلاغية: فسر الصحابة والسلف الصالح (الاستواء): بأنه العلو والارتفاع والاستقرار، والتعليم الإلهي للحمد ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى أن النجاة ليست بحيلة السفينة، وإنما بفضل الله ورحمته سبحانه.

التعبير بـ ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ دون اسم قومه إشعار بأن موجبات النجاة كانت الإيمان، وموجبات الهلاك كانت الظلم والشرك، كما أنّ كمة (نجانا) فيها إشارة إلى شيء من المعاناة التي عاناها في دعوة قومه..

*﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾: دعاء يجمع بين مطالب الدنيا والآخرة. التعبير بالمصدر الميمي/اسم المكان ﴿مُنزَلًا﴾ يحتمل إرادة الموضع أو الفعل نفسه؛ أي: أنزلني نزولاً فيه بركةً، في مكانٍ مبارك، قال البغوي: البركة في السفينة النجاة، وفي النزول بعد الخروج كثرة النسل من أولاده الثلاثة، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾

لفتة: يركز محمد قطب – رحمه الله - في دراساته للقرآن على استقرار النفس المؤمنة؛ فالمؤمن لا يستقر إلاّ بالبركة الإلهية، لا بمجرد الشواطئ واليابسة.

*﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ السياق: الفاصلة القرآنية التي تجمل العبرة؛ الخبر في قصص الأولين ليس مجرد حكايات، بل هو قضايا ابتلاء واختبار وتمحيص للأمم.

المقطع الثاني: القوم الآخرون ومواجهة الرسالة: *﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

التشابه الأسلوبي: إعادة نفس التكليف الإلهي ونفس الكلمات تعبيراً عن "وحدة الرسالات الإلهية" وتكرار المشهد الإنساني. القرن الآخرون قال البغوي: يعني: هوداً وقومه، وقيل: صالحاً وقومه، قال: والأول أظهر [1].

*﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾.

التحليل السياقي والاجتماعي: أضاف القرآن هنا وصفاً جديداً للمَلإ: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

يعزو ابن تيمية – رحمه الله - الطغيان والتكذيب بالمعاد غالباً إلى "الترف"؛ فالنعمة إذا لم تُشكر أورثت قسوة الحواس. التعبير الجسدي النفعي المادي ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ... وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ يُظهر نظرتهم السطحية للوجود؛ حيث قسّموا

1 - البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص805).

الكائنات بحسب الماديات فقط، واستبعدوا أن يتنزل الوحي على جسد يمارس البيولوجيا المادية!

*﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

إشراقة بلاغية: اسم الفعل ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ للبعاد الشديد جداً في العقليات الجاهلية؛ وتكراره يفيد المبالغة في الاستبعاد والاستهزاء، واللام في ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ لام البيان والتقوية.

قوله ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: أسلوب حصر مادي؛ يموت الآباء وتولد الأبناء، ولا شيء غير هذا النمط المادي المنغلق، والنتيجة الحاسمة لديهم: الاتهام بالافتراء ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

*﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وفي هذا وفي دعاء نوح السابق تعريض بالمشركين، كيف لو دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم.

عن عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما: أنَّها قالتْ لرسولِ اللَّهِ - صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ - : هل أتَى عليكَ يومٌ كانَ أشدَّ مِن يومِ أحدٍ ؟ فقالَ : لقد لقيتُ مِن قومِكِ ، وَكانَ أشدَّ ما لقيتُ منهُم يومَ العقبةِ إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عبدِ ياليلَ بنِ عبدِ كلالٍ ، فلَم يجبْني إلى ما أردتُ ، فانطلقتُ وأَنا مَهْمومٌ علَى وجهي ، فلَم أستفِقْ إلَّا وأَنا بقرنِ الثَّعالبِ ، فرفعتُ رأسي ، فإذا بسحابةٍ قد أظلَّتني ، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ عليهِ السَّلامُ ، فَناداني فقالَ : يا محمَّدُ ، إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ، قد سمِعَ قولَ قومِكَ لَكَ ، وما ردُّوا عليكَ ، وقد بعثَ اللَّهُ ملَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شئتَ فيهِم قالَ : فَناداني ملَكُ الجبالِ : فسلَّمَ عليَّ ، ثمَّ قالَ : يا محمَّدُ : إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد سمِعَ قولَ قومِكَ لَكَ ، وأَنا ملَكُ الجبالِ ، وقد بعثَني ربُّكَ إليكَ لتأمرَني أمرَكَ ، وبما شئتَ ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهِمُ الأخشبَينِ فعلتُ ، فقالَ لَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : بل أرجو أن يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبدُ اللَّهَ ، لا يشرِكُ بِهِ شيئًا [1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: سأل أهلُ مكَّةَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم أن يجعلَ لهم الصَّفا ذهبًا وأن يُنحِّى الجبالَ عنهم فيزدرعوا فقيل له : إن شئتَ أن تستأنيَ بهم ، وإن شئتَ أن نؤتيَهم الَّذي سألوه فإن كفروا أُهلِكوا كما أُهلِكت من

1 - أخرجه البخاري (3231)، ومسلم (1795) باختلاف يسير، وهذا لفظ رواية ابن خزيمة في كتاب التوحيد (ج1/ص111).

قبلهم. قال : بل أستأنيَ بهم، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ : وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً [1].

وفي حديث الشفاعة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوح عليه وسلم يعتذر من الشفاعة بقوله: وإنَّه قد كانَت لي دَعوةٌ دَعَوتُ بها على قَومي، نَفسي نَفسي ...إلى أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: يا مُحَمَّدُ، أنتَ رَسولُ اللهِ، وخاتَمُ الأنبياءِ، وغَفَرَ اللهُ لك ما تَقدَّمَ مِن ذَنبِك وما تَأخَّرَ، اشفَعْ لنا إلى رَبِّك، ألا تَرى ما نَحنُ فيه؟ ألا تَرى ما قد بَلَغَنا؟ فأنطَلِقُ، فآتي تَحتَ العَرشِ، فأقَعُ ساجِدًا لرَبِّي. . الى آخرة [2].. والشاهد أن دعوته صلى الله عليه وسلم ادخرها للشافعة يوم القيامة.

السياق الدقيق: استجابة الله الفورية: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ ("عن" مع "ما" الزائدة للتقليل والتأكيد) أي في زمن قصير جداً.

إشراقة بلاغية: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ الغثاء هو الزبد والهشيم القمامي الذي يحمله السيل؛ هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة تمثيلية تامة لتحول قوتهم وتجبرهم وترفهم إلى تفتت وتفاهة لا وزن لها ولا قيمة.

الدعاء الطردي: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هدم لمكانتهم وإعلان لطردهم من رحمة الله والوجود المبارك.

المقطع الثالث: تتالي القرون وسنّة التتابُع والتكذيب: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾.

نجد هنا الدلالة على الحتمية والضبط الإلهي للزمان والتاريخ. دخول حرف الجر الزائد مؤكداً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ للعموم والشمول؛ فلكل حضارة وأمة أجل محتوم لا يتقدم ثانية ولا يتأخر.

*﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

إشراقة بلاغية: ﴿تَتْرَىٰ﴾: أي متواترين يتلو بعضهم بعضاً على فترات ومظاهر متلاحقة، ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾: أي في الهلاك والدمار.

---

1 - أخرجه أحمد (2333) واللفظ له، والنسائي في ((الكبرى)) (11226) والحاكم (3379) بنحوه

2 - أخرجه البخاري (4712) باختلاف يسير، وهذا لفظ رواية مسلم (194).

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾: من أبلغ اللفتات الأسلوبية في القرآن؛ لم يبقَ من شخوصهم، وجبروتهم، وقصورهم، وأموالهم إلاّ "أحاديث" يُتحَدّث بها للعبرة والتسلية!

عن سهل بن سعد وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما: أنا فرَطُكُم على الحَوضِ، فمَن ورَدَه شَرِبَ منه، ومَن شَرِبَ منه لم يَظمَأْ بَعدَه أبَدًا، لَيَرِدُ عليَّ أقوامٌ أعرِفُهم ويَعرِفوني، ثُمَّ يُحالُ بَيني وبينَهم. قال أبو حازِمٍ: فسَمِعَني النُّعمانُ بنُ أبي عَيَّاشٍ وأنا أُحَدِّثُهم هذا، فقال: هَكَذا سَمِعتَ سَهلًا؟ فقُلتُ: نَعَم، قال: وأنا أشهَدُ على أبي سَعيدٍ الخُدريِّ لَسَمِعتُه يَزيدُ فيه، قال: إنَّهم مِنِّي، فيُقالُ: إنَّك لا تَدري ما بَدَّلوا بَعدَك، فأقولُ: سُحقًا سُحقًا لمَن بَدَّلَ بَعدي [1]. قال الشارح: أي: بُعْدًا بُعْدًا لِمَن غيَّر وبَدَّل بعْدي، وحاصِلُ ما حُمِل عليه حالُ المَذكُورين: أنَّهم إنْ كانوا مِمَّن ارتدَّ عن الإسلامِ.

ختام المقطع: عاود القرآن التأكيد والدعاء عليهم بالتنكيل والطرد ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ليُطابق الختامُ المطلعَ في النكير على عدم الإيمان والتقوى.

الخلاصة: هكذا ترسم الآيات لوحة متكاملة: المبدأ: بلاغٌ واضح بالنصح والتوحيد.

رد الفعل: منطق الملأ المترف (استكبار، قياس فاسد للبشرية، اتهام بالنوايا، تمسك بالموروث، إنكار للبعث).

ثم الحسم: لجوء الأنبياء إلى الله، واستجابة القدر بالصيحة والطوفان، ثم المصير: تحوّل التكبر والسيطرة إلى "غثاء" و"أحاديث" تروى في صفحات التاريخ.

*(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (56) إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ(59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ

1 - أخرجه البخاري (7050) ومسلم (2290 ، 2291)

ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (63) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (65) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(74))

هذه الآيات الكريمة هي الدرس الثالث من سورة المؤمنون مقطع تنزيلي مهيب، ينتقل فيه السياق القرآني من العرض التاريخي للرسالات (قصة موسى وعيسى عليهما السلام)، إلى التقعيد والأصول الإيمانية (وحدة الأمة وصفات المؤمنين والفرق بينهم وبين أهل الاستكبار)، وصولاً إلى المواجهة البيانية الصارمة مع الكفار واستعراض أدواء نفوسهم ومحاججتهم بالدلائل اللسانية والوجودية.

المقطع الأول: من تاريخ الرسالات إلى وحدة الرسالة: *﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

الربط السياقي والأسلوبي: عطف بـ «ثُمَّ» الدالة على تراخي الزمان والمنزلة؛ لبيان عظمة الرسالة الكبرى لموسى وهارون بعد الأمم الخالية.

اللمحة البيانية واللسانية: الجمع بين «بِآيَاتِنَا» (الحجج الباهرة والمعجزات) و«سُلْطَانٍ مُّبِينٍ» (وهي القوة البرهانية والهيبة الإلهية التي تُقهر بها الشبهات). أشار ابن عاشور – رحمه الله - إلى أنّ "السلطان المبين" هنا هو الحجة العقلية والتمكين الخارق الذي يفرض نفسه على النفوس.

*﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾: التفريع بالفاء «فَاسْتَكْبَرُوا» يدل على الاستجابة الفورية بالتكبر قبل الاستماع والتأمل في رسالة موسى وهارون عليهما السلام.

وصفهم بـ «عَالِينَ» إشارة إلى الاستعلاء والسيطرة الظاهرية المتسلطة؛ فالاستكبار عمل نفسي داخلي، والتطاول («عَالِينَ») هو مظهر استبدادهم في الأرض تجاه بني إسرائيل.

*﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾، إشراقة بلاغية: الاستفهام هنا إنكاري استبعادي. وعبارة «لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا» تعكس علة الجحود القديمة: قياس النبوة على الماديات والتحجير على الاستعداد البشري للتلقي عن الله.

قوله «وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ» كشفٌ للدافع الحقيقي للكفر؛ ليس هو ضعف الدليل، بل الخوف على "المكاسب الطبقية" والسيطرة الاستعبادية.

*﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾، كذلك هنا طي لما فصل في سور الأعراف وغيرها من طول جدال فرعون، وتحديه للآيات، وملاحقة موسى وقومه حتى أهلكه الله وجنوده، فهنا إيجاز وسرعة: تعقيب التكذيب بـ «فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ» بإيجاز بحذف تفاصيل الغرق؛ تعبيراً عن هوانهم على الله، وأن الهلاك سنّة حتمية جارية لا تتخلف عن الكبر.

*﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، النقلة السياقية: الانتقال من التدمير إلى "البناء والهدى". إيتاء التوراة كان نقطة تحول حاسمة في تاريخ بني إسرائيل؛ فالهدف الأول والأخير للكتب السماوية هو الاهتداء والإنقاذ بعد الضلال.

*﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، البيان واللطائف اللغوية: قال «آيَةً» بالإفراد ولم يقل "آيتين"؛ لأن شأن عيسى وأمه وأمرهما واحد متصل في العجب الخارق للعادة (ولادة من غير أب).

والمعنى اللغوي: «رَبْوَةٍ»: المكان المرتفع المستوي، «ذَاتِ قَرَارٍ»: فيها استقرار وثمار وتيسير للمعيشة، «وَمَعِينٍ»: ماء جاري ظاهر للعيون. وهي الصورة المثالية لراحة النفس وسكون البال بعد الاضطهاد.

*﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا أيُّها النَّاسُ إنَّ اللَّهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلَّا طيِّبًا ، وإنَّ اللَّهَ أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ بِه المرسلينَ فقالَ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وقالَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ قالَ وذَكرَ الرَّجلَ يُطيلُ السَّفرَ أشعثَ أغبرَ يمدُّ يدَه إلى السَّماءِ يا ربِّ يا ربِّ ومطعمُه حرامٌ ومشربُه حرامٌ وملبسُه حرامٌ وغذِّيَ بالحرامِ فأنَّى يستجابُ لذلِك[1].

التأصيل والربط - كما ذكر ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله -: الربط بين الأكل من الطيبات والعمل الصالح ربط بنيوي؛ فالغذاء الطيب يثمر العمل الصالح.

وحدة الدين والرسالة: نداء الرسل جميعاً يعلن أصل الحقيقة: "الدين واحد، والرب واحد، والأمة واحدة"، وإنما اختلفت الشرائع والمناهج.

---

1 - أخرجه الترمذي (2989) واللفظ له، وحسن الألباني إسناده، وأخرجه مسلم (1015) باختلاف يسير

المقطع الثاني: تشتت الأهواء وصورة الفريقين: *﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة تصويرية: «زُبُرًا» جمع زُبرة وهي القطعة العظيمة أو الكتاب المفصول. صور التفرق الحزبي كأنه تمزيق للجسد الواحد إلى قطع ومناهج شتى.

العلة النفسية: «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»؛ الفرح هنا هو الإعجاب بالرأي والانغلاق الفكري الذي يمنع صاحبه من رؤية الحق عند الآخر.

*﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، التعبير بالغمرة والمجاز: «غَمْرَتِهِمْ»: الغمرة هي الماء الكثير الذي يغطي المرء، واستعيرت هنا للجهالة والحيرة والغفلة السادرة التي تغمر عقولهم وقلوبهم. و«حَتَّىٰ حِينٍ» فيه تهديد خفي بأجل لا يتخلف.

*﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾

سيكولوجية الاستدراج كما يرى ابن القيم – رحمه الله -: تصحيح مفهوم "النعمة". الكفار يظنون العطاء المادي (مال وبنون) دليلاً على محبة الله ورضاه، فجاء الرد القاطع بـ «بَل لَّا يَشْعُرُونَ»؛ إنما هو إملاء واستدراج ونكال.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُملي للظَّالِمِ، فإذا أخَذَه لَم يُفلِتْه، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وكَذلك أخذُ رَبِّك إذا أخَذَ القُرى وهي ظالِمةٌ إنَّ أخذَه أليمٌ شَديدٌ﴾ [1].

اللوحة المقابلة: صفات السابقين إلى الخيرات: في مقابل أهل الغمرة والاستكبار، يعرض القرآن لوحة سيكولوجية إيمانية متدرجة في غاية العجب والبلاغة:

الصفة الإيمانية: إشراقة بلاغية سيكولوجية: *﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، الخشية والإشفاق«مُّشْفِقُونَ»: الإشفاق هو الخوف الحذر المقترن بالرقابة الدائمة والوجل.

*﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ التصديق والتأمل. انتقل من خشية القلب إلى تصديق العقل والروح بآيات الله المسطورة والمنشورة.

*﴿وَالَّذِينَ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾: التوحيد الخالص والتنزيه التام عن الشرك الجلي والخفي بعد استقرار الإيمان في النفوس.

---

1 - أخرجه البخاري (46862989) واومسلم (2583) وهذا لفظه.

*﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾، الجمع بين الإحسان والخوف أوج الإيمان كما ذكر ابن تيمية والحسن البصري – رحمهما الله. يعملون الطاعات ويعطون الصدقات وهم يخافون أن لا تُقبل منهم لأنهم راجعون إلى ربهم.

عن عائشة رضي الله عنها قال: ا رَسولَ اللَّهِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أَهوَ الَّذي يَزني ويَسرِقُ، ويَشرَبُ الخمرَ ؟ قالَ: لا، يا بِنتَ أبي بَكْرٍ أو يا بِنتَ الصِّدّيقِ ولَكِنَّهُ الرَّجلُ يَصومُ، ويتَصدَّقُ، ويُصلِّي، وَهوَ يَخافُ أن لا يُتقبَّلَ منهُ [1].

*﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، التعبير بالمسارعة: استخدام صيغة المفاعلة «يُسَارِعُونَ» يدل على رغبة ذاتية وهمة عالية لا تنتظر الأوامر الجافة، والتأكيد بقوله «وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ» يقرر وصولهم ومكانتهم العالية.

المقطع الثالث: عدل التكليف ومواجهة المترفين: *﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الرحمة والعدل: تطمين إلهي؛ التكاليف ليست فوق المقدرة البشرية، وهنا كذلك ما يسميه البلاغيون: استعارة: «كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ»؛ تشبيه إحصاء الأعمال بالشهادة الناطقة الصريحة التي لا تجور ولا تُسقط أحداً.

لكن يقال: وما يدرينا، فلعل كتب الصحائف تنطق يوم القيامة، فهذا العلم الحديث يشهد لذلك، وصنع الله أعجب وأجل سبحانه.

*﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾، العودة إلى غفلة الجاحدين: «مِّنْ هَٰذَا» أي من هذا القرآن وهذا العدل الإلهي. وأفعالهم السيئة مقدرة ومكتوبة يمارسونها بإرادتهم الداثرة.

*﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾، ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾.

الرسم بالكلمات (الصوت والصورة): «يَجْأَرُونَ»: الجُؤار هو رفع الصوت بالتضرع والاستغاثات الصارخة (كجؤار البقر). الكلمة تصوّر الخور والسقوط النفسي لأولئك المترفين الذين كانوا يستكبرون في الدنيا، فإذا نزل العذاب ذهب كبرهم وحل محله الصراخ المهين!

فيأتيهم الزجر الإلهي، ويأتيهم التوبيخ الحاسم: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾؛ انقطع وقت التضرع ولات حين مناص.

---

1 - أخرجه الترمذي (3175)، وابن ماجه (4198) واللفظ له، وأحمد(25705) ، وحسن الألباني إسناده.

*﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ۞ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

الحركة النكوصية البلاغية: ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ تجسيد حركي للهزيمة والفرار من الحق إلى الخلف.

وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله حين مرض بمكة وجاءه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، قال صلى الله عليه وسلم: قال اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم لكن البَائس سعد بن خولة يرثي له رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة [1].

التحليل الاجتماعي والسلوكي: «مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ»: استكبار بالبيت الحرام أو بالقرآن والرسول سفهاً وتطاولاً.

«سَامِرًا»: وأما المجتمع في الليل فيسمى: السامر، (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ) من السمر، (سامراً) نُصِبَ عَلَى الْحَالِ، أَيْ أَنَّهُمْ يَسْمَرُونَ بِاللَّيْلِ فِي مَجَالِسِهِمْ حَوْلَ الْبَيْتِ«تَهْجُرُونَ»: قَرَأَ نَافِعٌ «تُهْجِرُونَ» بِضَمِّ التَّاءِ وَكَسْرِ الْجِيمِ مِنَ الْإِهْجَارِ وَهُوَ الْإِفْحَاشُ فِي الْقَوْلِ، أَيْ تُفْحِشُونَ وَتَقُولُونَ الْخَنَا، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسُبُّونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ،

وَقَرَأَ الْآخَرُونَ «تَهْجُرُونَ» بِفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّ الْجِيمِ، أَيْ: تُعْرِضُونَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ، وَتَرْفُضُونَهَا. وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْهَجْرِ وَهُوَ الْقَوْلُ الْقَبِيحُ، يُقَالُ هَجَرَ يَهْجُرُ هَجْرًا إِذَا قَالَ غَيْرَ الْحَقِّ. وَقِيلَ: تهزؤون وَتَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ، مِنْ قَوْلِهِمْ هَجَرَ الرَّجُلُ فِي مَنَامِهِ إذا هذى.

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، أنَّه قال: يَومُ الخَميسِ، وما يَومُ الخَميسِ! ثُمَّ جَعَلَ تَسيلُ دُموعُه، حتَّى رَأيتُ على خَدَّيه كَأنَّها نِظامُ اللُّؤلُؤِ، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ائتوني بالكَتِفِ والدَّواةِ، أوِ اللَّوحِ والدَّواةِ، أكتُبْ لَكُم كِتابًا لَن تَضِلُّوا بَعدَه أبَدًا، فقالوا: إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَهجُرُ [2].

المحاجة العقلية الخماسية: يستعرض القرآن خمسة استفهامات إنكارية سابرة ومفككة لعلل الإعراض:

تدبر القول؟ (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا) مفاجأة الرسالة؟ (أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ..)، جهالة الرسول؟ (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا..) دعوى الجنون والافتراء؟

---

1 - أخرجه البخاري (1295)، ومسلم (1628) بنحوه.
2 - أخرجه مسلم (1637)، وأحمد (3336)، وأبو عوانة في ((المستخرج)) (6198) واللفظ لهما، والبخاري (3053) مطولًا.

حتى يصل لتهمتهم الجاهزة لكل نبي: (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ)، ثم تهمة طلب الأجر والمقابل؟ وهي تهمة قديمة كذلك: (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا)

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ...﴾: هل العيب في عدم تفكرهم في القرآن ومعانيه المعجزة؟

﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾: أم أن بدعة الرسالة شيء لم تُسبق به البشرية في تاريخ الرسل؟

*﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾: أم أن محمدًا ﷺ غريب عنهم لا يعرفون صدقه وأمانته ونسَبه؟ (وهم يعرفونه بـ "الأمين").

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾: أم يرمونه بالجنون؟ فكشف القرآن الداء الحقيقي: ليس هو الشك، بل «كَرَاهِيَةُ الْحَقِّ» لموافقته أهواءهم.

المقطع الرابع: الميزان الوجودي والدعوة إلى الصراط: *﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ...﴾

القاعدة الوجودية الكبرى عند ابن تيمية وابن عاشور- رحمهما الله -: انّ الحق ثوابت ونظام كوني وديني قائم على العدل والحكمة. لو خضع الحق والتشريع لرغبات البشر وشواتهم المتغيرة والمضطربة، لانفرط عقد الوجود وفسد نظام السماوات والأرض.

التشريف: «بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ»: القرآن فيه شرفهم وعزهم وحياتهم الصالحة، ومع ذلك هم عنه معرضون!

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، نزاهة الداعي: الرسول لا يطلب أجراً أو جعلاً ماليًا («خَرْجًا») على إرشادهم؛ فثواب الله ورزقه أكبر وأبقى.

*﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾

الختام بالصراط والنكوب: «لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»: الصراط هو الطريق الواضح الموصل للهدف بلا التواء ولا عوج.

«لَنَاكِبُونَ»: النكوب هو الانحراف الشديد والشذوذ عن الطريق السوي. أصل العلة في نكوبهم وعدم استقامتهم هو: عدم الإيمان بالآخرة؛ إذ بمنع هذا الإيمان يزول الرادع والوازع الإلهي، فيصبح الإنسان عبداً لهواه واستكبره.

الخلاصة: هكذا تنساب الآيات في وحدة موضوعية متماسكة: تنطلق من مواجهة الحق للباطل (موسى وفرعون)، لتقرر أن العاقبة للتقوى والأمة واحدة،

وتفرّق بعمق بين سيكولوجية المؤمن الوجل المسارع في الخيرات وبين الجاحد الغافل المترف، ثم تدمّر دعاوى الإعراض بمحاجة عقلية ومنطقية ناصعة، ينكشف معها أن مشكلة الجاحد ليست نقص البينات، بل هو عَمَى الهوى والنكوب عن الصراط المستقيم.

*(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83) قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ(89) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (92) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ(98))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس قبل الأخير من سورة المؤمنون تُشكّل مقطعاً قرآنياً بليغاً يأخذ بالنفس في رحلةٍ تصاعدية؛ من بيان طبائع النفوس العاتية، إلى إقامة الدلائل الكونية، ثم الإلزام الحجّاجي، وصولاً إلى التوجيهات القيادية والوقائية للنبي ﷺ وأمته.

*﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: "اللَّجَج" هو الاستمرار في الخصومة والتمادي في الباطل مع العناد. و"العَمَه" هو عمى البصيرة والتحيّر (بخلاف العمى الذي هو للبَصَر).

إشراقة البلاغة والأسلوب: استخدام أداة الشرط (لو) الدالة على امتناع الجواب لامتناع الشرط، يبيّن أن طبيعتهم المكتسبة أصبحت عصية على التأثر بالرحمة.

يوضح ابن القيم – رحمه الله - أنّ البلاء لم يكن ليعيدهم، بل إن كشف الضرّ عن المريض النفسي أو المعاند يُكسبه غروراً إضافياً؛ فتتحول النعمة بعد النقمة إلى سُكْرٍ يجعله يتخبط (يعمهون) في طغيانه.

*﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، قال البغوي: «وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا عَلَى قُرَيْشٍ أَنْ يَجْعَلَ عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِّيِ، يُوسُفَ فَأَصَابَهُمُ الْقَحْطُ، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟ فَقَالَ: بَلَى، فَقَالَ: قَدْ قَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ فَادْعُ اللَّهَ أَنَّ يَكْشِفَ عَنَّا هَذَا الْقَحْطَ، فَدَعَا فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ {فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ}، أَيْ: مَا خَضَعُوا وَمَا ذَلُّوا لِرَبِّهِمْ، وَأَصْلُهُ طَلَبُ السُّكُونِ، {وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} أَيْ: لَمْ يَتَضَرَّعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بَلْ مَضَوْا عَلَى تَمَرُّدِهِمْ [1].

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ يَقُولُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ. يَدْعُو لِرِجَالٍ فَيُسَمِّيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ. وَأَهْلُ الْمَشْرِقِ يَوْمَئِذٍ مِنْ مُضَرَ مُخَالِفُونَ لَهُ» [2].

إشراقة بلاغية: "الاستكانة" هي الخضوع والسكون والانقياد. والجملة جاءت بسيق التأكيد (ولقد) للتحقيق.

العدول الأسلوبي: قال: {فَمَا اسْتَكَانُوا} بالماضي، ثم قال: {وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} بالمضارع!

اللطيفة البلاغية: استخدام الماضي يفيد نفي الاستكانة وقت وقوع العذاب، واستخدام المضارع يفيد نفي التضرع الممتد والمتجدد في حاضرهم ومستقبلهم. فالقسوة عندهم طبع أصيل لا يتغير مطلقاً.

*﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْقَتْلَ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَقِيلَ: هُوَ الْمَوْتُ. وَقِيلَ: هُوَ قِيَامُ السَّاعَةِ؟ ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

البلاغة والجماليات: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾: هنا ما يسميه البلاغيون: استعارة تمثيلية لتجسيم العذاب كأنه سجن مغلق أو سيل محبوس أُطلق عليهم فجأة.

وهو مثل قريب من قوله تعالى: (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ) [القمر: 11]: اسلوب بياني بديع، السماء حصن مغلق مليء بالمياه فُتحت أبوابه دفعة واحدة، والمنهمل بقوة هو "المنهمر".

وقوله (مُبْلِسُونَ): الإبلاس هو اليأس المقترن بالانكسار والسكوت والتحير (ومنها وُضع اسم إبليس).

---

1 - البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص810).
2 - أخرجه البخاري (804).

الفجائية الأسلوبية: استخدام (إذا) الفجائية بعد (حتى إذا) تُصوّر الذهول والبهتة التي تأخذهم فلا يملكون معها دافعاً ولا شليلاً.

*﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، النظم والترتيب: قُدّم السمع لأنه أداة تلقي الوحي، ثم الأبصار وهي أداة النظر في الأكوان، ثم الأفئدة (العقول/القلوب) للربط والفهم. وجاء السمع مفصلاً بالمفرد (السمع) لكون المصدر يستوي فيه الجمع والفرد، وجُمعت (الأبصار) و(الأفئدة) لتعدد المشهودات والمدركات.

النعم المذكورة هنا – كما يرى سيد قطب – رحمه الله - ليست مجرد حواس بيولوجية، بل هي "منافذ المعرفة والإيمان". وعدم استخدامها في الاهتداء هو قمة الكفران بها؛ ولهذا قال: {قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}.

*﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: {ذَرَأَكُمْ}: نشركم وبثكم بكثرة مع الإبداع في الخَلْق.

كما أنّ (تقديم الجار والمجرور) في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يفيد الحصر؛ أي: إليه وحده لا إلى غيره يكون المرجع والمصير، فلا مفرّ منه إلا إليه.

*﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، التناسق والتقابل: جمع بين الضدين (يُحيي ويُميت)، و(الليل والنهار) لبيان كمال القدرة والتصرف المطلق.

ثم ختم الآية بالاستماع التعقيلي: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام إنكاري وتبكيتي، يُطالبهم بإعمال العقل المنطقي: مَن يخلق وينشئ ويُغيّر الفلك، أيعجز عن إعادتكم؟

*﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ، قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

الارتقاء الأسلوبي (بل): (بل) للإضراب الانتقالي؛ انتقل من إقامة الدليل العقلي الظاهر إلى بيان موقفهم الحقيقي، وهو التبعية الأعمى والمحاكاة للآباء.

الاستفهام الإنكاري المتكرر: {أَإِذَا مِتْنَا... أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ}؛ تكرار همزة الاستفهام مع دمج التوكيد بـ (إنّ) و(اللام) يعكس شدة استبعادهم وتعجبهم الإنكاري.

التحليل اللغوي: تسمية الحق بـ {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} (جمع أسطورة) هي حيلة نفسية للهروب من الاستحقاق الإيماني والالتزام التكليفي، عبر رميه بالقدم والخرافة.

جولة الملازمة والإلزام الحِجَاجي: *(قل لمن الأرض... سيقولون لله... قل من رب السماوات... سيقولون لله... قل من بيده ملكوت... سيقولون لله) [مبدأ الإلزام القرآني في الآيات 84-89]

سؤال الإقرار (التوحيد الربوبي)	إجابتهم الذاتية (لله)	سؤال التوبيخ (التوحيد الألوهي)
لمن الأرض ومن فيها	سيقولون لله	أفلا تذكرون؟" (تذكر الفطرة)
من رب السماوات والعرش العظيم	سيقولون لله	أفلا تتقون؟" (عظمة الخالق تُوجب التقوى)
من بيده ملكوت كل شيء	سيقولون لله	فأنى تسحرون؟" (انخداع العقول وتغيبها)

البلاغة الحِجَاجية (ابن تيمية): هذا منهج القرآن في الاحتجاج بتوحيد الربوبية (الذي يقرون به) على توحيد الألوهية (الذي يجحدونه).

التدرج في التعقيب: مع الأرض: {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} (لأن الأرض قريبة ومشهودة فتحتاج مجرد تذكر).

مع السماوات والعرش: {أَفَلَا تَتَّقُونَ} (لأن عظمة العرش والسماوات تورث الخشية والتقوى).

مع الملكوت والإجارة: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ (لأن من يقر بملكية الله المطلقة ثم يعبد غيره كأنه مسحور مأخوذ عن عقله!).

مع الإحياء والإماته قبل ذلك، ومع إحياء الأرض بالمطر في كل القرآن ﴿أفلا تعقلون﴾ لأن إحياء الأرض وشفاء الأمراض يمكن أن يتوصل إلى بعضه بالعلم والبحث والتجربة، والله أعلم.

ولأن العلم يورث خشية الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ،وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:27-28].

التعبير بـ (ملكوت): زيادة المباني تدل على زيادة المعاني؛ والواو والتاء للمبالغة في الملك والسلطان.

التركيب المعجز: ﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾؛ إيجاز بحذف متصل، يبيّن سلطانه المطلق الذي لا يستطيع أحد أن يحمي أحداً منه.

*﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الفصل الحاسم: إضراب عن أقوالهم. المواجهة بالحقيقة الساطعة؛ المشكلة ليست في نقص الدليل، بل في كذبهم وافتراءاتهم الذاتية.

*﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ... ﴾

دليل التمانع (دليل برهاني عقلي فذ): التحليل الفلسفي البلاغي ذكره ابن القيم وابن رشد التفسيري – رحمهما الله -: لو فرضنا وجود آلهة متعددة، لكانت الحالة إما:

إن ينفرد كل إله بخلقه ويسيطر عليه ({لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ})، فتتفكك وحدة العالم ونظامه.

أو يغلب أحدهم الآخر ({وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ})، فالغالب هو الإله الحقيقي والمهزوم ليس بإله.

وحيث إن الكون منتظم غاية الانتماء والتناسق، فهذا دليل قاطع على وحدة المدبر.

التنزيه: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} تبرئة لعرصات ألوهيته عن تخيل الشركاء والأنداد.

*﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، إشراقة بلاغية: صفة للرب جل وعلا. تقديم (الغيب) على (الشهادة) لأن إحاطته بالمستور والخفي أبلغ وأدلّ على كمال العلم من الظاهر المشهود. {فَتَعَالَىٰ} تفيد الارتفاع والعظمة المتناهية.

*﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ... ﴾، الأدب النبوي والتعليم الإلهي: تعليم للرسول ﷺ وللمؤمنين بكيفية الدعاء عند نزول العقوبات.

النداء والتضرع: تكرار لفظ {رَّبِّ} لطلب القرب والتوسل بربوبيته للنجاة. المفهوم: حتى لو كنت نبي الله، فإذا نزل العذاب بالظالمين فاسأل الله ألا تجعل فيهم، لأن العذاب إذا نزل قد يعمّ إن لم تُتدارَك الرحمة، أو لتنزيه الرسول عن مجرد القرب من مواطن الغضب الإلهي.

*﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ السياسة الأخلاقية للقرآن: بعد إقامة الحجة وتبيان العذاب، لا ينبغي للداعية أن يندفع بالانتقام النفسي.

الإيجاز والعموم: {بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} حذف المتعلق (بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن) للتأكيد على مطلق الدفع بالجميل؛ مقابل الحلم بالجهل، والعفو بالإساءة.

التسلية والضمان: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ}؛ طمأنة لقلب النبي ﷺ بأن الله يحصي عليهم كل أذاهم وكذبهم وسيُحاسبهم عليه.

*﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾. "الهمزات" جمع همزة، وهو النخس والنزغ والوسوسة والإغواء السريع الخفي.

إشراقة بلاغية وتربوية ذكرها ابن عاشور والغزالي – رحمهما الله -: لما أمره بالدفع بالتي هي أحسن مع "شياطين الإنس" في الآيات قبلها، أمره بالاستعاذة من "شياطين الجن" هنا.

لأن شيطان الإنس يُستصلح بالإحسان والدفع بالتي هي أحسن، أما شيطان الجن فلا يقبل الرشوة ولا يثنيه الجمع، فلا مفر منه إلا بالالتجاء إلى خالقه.

قوله: {أَن يَحْضُرُونِ}: لم يقل "أن يضرونِ" بل {يحضرون}؛ لأن مجرد حضور الشيطان في مجلس أو أمر يُدخل الشائبة والشر، فالاستعاذة هي من "قُرْبِهم ومحاضرتهم" أصلًا في شؤون الحياة كلها.

*(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(118))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس الأخير هي ختام سورة المؤمنون، وهي من أبلغ المحطات الفرقانية في القرآن الكريم. تنقل السالك من مشهد احتضار الكافر وحسرته، مروراً بهول النفخ في الصور، وحقيقة الموازين، وصولاً إلى الحوار التهكمي والمباشر في النار، لتنتهي الآيات بالغاية العظمى: حقيقة الخلقة، وتنزيه الله، وحسم أمر التوحيد.

مشهد الاحتضار والبرزخ: *﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

إشراقة في بلاغة والأسلوب: ﴿حَتَّىٰ﴾: غائية؛ تدل على الامتداد والتمادي في الغفلة والعناد حتى يدهمه الموت بغتة.

﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾: استعمل صيغة الجمع («ارْجِعُونِ» ولم يقل: «ارجعني»)؛ وهو إما لتعظيم المخاطَب (وهو الله سبحانه)، أو كما يرى ابن عاشور: خطاب للملائكة الذين يحضرون موته عائذاً بالرب.

﴿لَعَلِّي﴾: أسلوب ترجٍّ يحمل في طياته الضعف والانكسار بعد الاستكبار، وفي قوله ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ إشارة إلى ندامته على ما فرّط فيه من العمر والمال والقوة.

ويأتي الجواب حاسماً: ﴿كَلَّا﴾: حرف زجر ورادع يقصم كل أمل، ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: تقليل من شأن هذه الإنابة المتأخرة، فهي مجرد لسان ينطق تحت تأثير الفزع لا عن يقين وتوبة صادقة.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:28]، قال السدي: بدت لهم أعمالهم في الآخرة، التي أخفوها في الدنيا، وقال قتادة: ولو وصل الله لهم دُنيا كدنياهم، لعادوا إلى أعمالهم أعمالِ السوء.

يبرز سيد قطب - رحمه الله - هنا التباين المروع بين الاستعلاء في الحياة، والانكسار المذل عند لحظة الانكشاف الذاتي.

ويقول ابن القيم - رحمه الله -: إنما طلب الرجوع ليُعمل صالحاً، لا ليستمتع أو يجمع، لأن الصورة الحقيقية لقيمة العمر اتضحت له فور زوال حجاب الدنيا.

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾: البرزخ هو الحاجز بين عالمين (الدنيا والآخرة)، واستعمال لفظ ﴿وَرَائِهِم﴾ أسلوبيًا يحمل معنى الإحاطة التي لا مفر منها.

هول النفخة وانقطاع الأسباب: *﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

إشراقة بلاغة والأسلوب: البناء لما لم يسم فاعله: ﴿نُفِخَ﴾: لتضخيم الحدث، فالمرعب ليس الشخص النافخ بل النفخة ذاتها.

نفي الأنساب ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾: النفي للجنس (فلا أنساب)، أَيْ: لَا يَتَفَاخَرُونَ بِالْأَنْسَابِ يَوْمَئِذٍ كَمَا كَانُوا يَتَفَاخَرُونَ فِي الدُّنْيَا.

﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾: وَلَا يَتَسَاءَلُونَ سُؤَالَ تَوَاصُلٍ كَمَا كَانُوا يَتَسَاءَلُونَ فِي الدُّنْيَا. مَنْ أَنْتَ وَمِنْ أَيِّ قَبِيلَةٍ أَنْتَ؟ وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ الْأَنْسَابَ تَنْقَطِعُ.

فإن قيل: قد قال ههنا ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصَّافَّاتِ: 27] ؟ الْجَوَابُ. مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمَا: إِنَّ لِلْقِيَامَةِ أَحْوَالًا وَمُوَاطِنَ فَفِي مَوْطِنٍ يَشْتَدُّ عَلَيْهِمُ الْخَوْفُ فَيَشْغَلُهُمْ عِظَمُ الْأَمْرِ عَنِ التَّسَاؤُلِ فَلَا يَتَسَاءَلُونَ، وَفِي مَوْطِنٍ يفيقون إفاقة فيتساءلون [1].

يلاحظ البقاعي – رحمه الله - التناسب التام بين غياب المساعد (الأنساب) وانقطاع التفاهم (التساؤل)، لتجريد الإنسان كاملاً أمام ربه.

حقيقة الموازين والمصير: *﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾

إشراقة بلاغة والأسلوب: سيكون للأعمال أجرام وأجسام توضع في الموازيه ﴿مَوَازِينُهُ﴾ فتثقل أو تخف، والتعبير بالميزان يمنح العدل تجريداً حسياً وملموساً.

الحصر والإشارة البعيدة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ...﴾: استخدام اسم الإشارة للعلو والرفعة للمفلحين، وللإبعاد والإهانة للخاسرين.

﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾: أعظم أنواع الخسران؛ لأن التجارة لم تكن في مال أو عرض، بل في الذات نفسها، كما في سورة الحج: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

الفعل المضارع ﴿تَلْفَحُ﴾ والتعبير بـ ﴿وُجُوهَهُمُ﴾: اللفح هو شدة إحراق النار، وتخصيص الوجه لأنه مجمع المحاسن وأكرم عضو في الإنسان.

وكما هو الحال في الدنيا، فإن الريح الحارة إنما تلفح الوجه قبل جميع أعضاء الجسم لشدة حساسيته.

﴿كَالِحُونَ﴾: صفة مشبهة تدل على ثبات الهيئة بشاعةً، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ قالَ: تَشويهِ النَّارُ فتقلَّصُ شفتُهُ العُليا حتَّى تبلُغَ وسطَ رأسِهِ وتَستَرخي شفتُهُ السُّفلى حتَّى تضرِبَ سرَّتَهُ [2].

والوجه الكالح هو الوجه الشاحب شديد الشحوب، كالذي أضناه الهم فشحب وجهه، فهو شحوب شديد لا تخطئه قراءة وملاحظة الضنى والضنك عليه.

يعلق ابن تيمية – رحمه الله - على الموازين بأن ثقلها يكون بتحقيق التوحيد والإخلاص، وخفتها تقع بالشرك والخواء الإيماني.

ويؤكد محمد قطب – رحمه الله - إلى أن القرآن يعيد ترتيب القيم: فالوزن الحقيقي في الأبدية هو وزن العقيدة والعمل لا وزن الجاه والمال.

---

1 - البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص813).
2 - أخرجه الترمذي (2587)، وأحمد(11836) ، وضعف الألباني إسناده.

الحوار والمواجهة التقريعية: *﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾

إشراقة بلاغة والأسلوب: الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ تَكُنْ...﴾: إقامة للحجة وإلجام للخصم قبل إيقاع الحكم.

الاعتراف المذل ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾: إقرار منهم بالهزيمة النفسية أمام أهوائهم، والشقوة هي القدر المكتوب بإعراضهم اختياراً.

الزجر الصارم ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾: "اخسأ" كلفة تُقال للكلاب لطردها، وفيها أقصى درجات الإهانة والتثبيط والقطع النهائي لأي أمل.

﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب، فإني لا أرفعه عنكم، فعند ذلك آيس المساكين من الفرج، قال الحسن: هو آخر كلام يتكلم به أهل النار، ثم لا يتكلمون بعدها إلاّ الشهيق والزفير، ويصير لهم عواء كعواء الكلاب لا يفهموه ولا يُفهمون [1].

*﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

إشراقة بلاغة والأسلوب: الإسناد والتكريم ﴿عِبَادِي﴾: ياء الإضافة للتكريم والتشريف للمؤمنين.

السبب والمسبب ﴿أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾: شدة الاشتغال بالسخرية والاستهزاء بالصالحين كانت هي السبب المباشر لنسيان ذكر الله.

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: الإشارة إلى أن الفوز لم يكن لمجرد دعواهم، بل بثباتهم وصبرهم على الاستهزاء.

يتأمل ابن عاشور – رحمه الله - في تعليل النصر بالصبر؛ ليدلل على أن أسلوب السخرية الذي يمارسه الطغاة والمستهزؤون في الدنيا هو ابتلاء يحتاج إلى صبر استراتيجي طويل ينتهي بـ ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

*﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: نسوا مدة لبثهم في الدنيا؛ لعظم ما هم بصدده من العذاب، ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم.

بل ينسون الدنيا وشقاها ونعيمها: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: يُؤْتَى بأنعمِ أهلِ الدنيا من أهلِ النارِ يومَ القيامةِ ، فيُصْبَغُ في

1 - البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص814).

جهنمَ صَبْغَةً، ثم يقالُ له: يا ابنَ آدمَ هل رأيتَ خيرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ويُؤْتَى بأَشَدِّ الناسِ بُؤْسًا في الدنيا من أهلِ الجنةِ، فيُصْبَغُ في الجنةِ صَبْغَةً، فيقالُ له: يا ابنَ آدمَ ! هل رأيتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا رَبِّ! ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ [1].

*﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، سَمَّاهُ قَلِيلًا لِأَنَّ الْوَاحِدَ وَإِنْ طَالَ مُكْثُهُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَكُونُ قَلِيلًا فِي جَنْبِ مَا يَلْبَثُ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّ لبثه في الدنيا والقبر مُتَنَاهٍ ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قدر لبثكم في الدنيا.

إشراقة في بلاغة الأسلوب: السؤال لاستحضار الضآلة: الاستفهام هنا ليس لاستعلام الجواب، بل لبيان تهافت الدنيا وصغرها مقارنة بالأبد.

جواب الدهشة ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: نكران لقيمة الزمن الدنيوي وتلاشيه كأنه لم يكن.

﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾: تفويض الإجابة للملائكة الذين يحسبون، لعدم قدرتهم على التقدير من شدة العذاب والذهول.

يبرز سيد قطب – رحمه الله - هذه المفارقة: "هذه الحياة الدنيا التي يتصارع عليها الناس، ويبغون فيها، ويضيعون لأجلها الآخرة... عندما تقاس بمقياس الحقيقة تبدو كأنها ساعة من نهار!"

التعقيب والتنزيه والختام المعجز: *﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾

إشراقة بلاغة الأسلوب: الاستفهام الإنكاري ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾: إبطال وتنديد بفكرة الحسبة الباطلة والتفكير السطحي.

﴿عَبَثًا﴾: مفعول لأجله، ونفيه يثبت الغائية والمقصد العظيم من الخلق (الابتلاء والتكليف)، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة للجزاء.

التنزيه المطلق ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾: الفاء لترتيب التنزيه على نفي العبثية؛ فالله أعظم وأعلى من أن يخلق خلقاً عبثاً ولعباً وباطلاً بلا حكمة.

الصفات المحكمة: (الملك) له السلطان، (الحق) ثابت الوجود والعدل، (رب العرش الكريم) له العظمة المطلقة.

*﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

1 - الألباني: صحيح الجامع (8000)، وأخرجه مسلم (2807) باختلاف يسير.

إشراقة بلاغة الأسلوب: الجملة الاعتراضية الكاشفة ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾: صفة كاشفة للواقع، أي لا حجة له ولا بينة، لأنه لا حجة في دعوى الشرك.

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ أي: جزاؤه، ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ يجازيه بعمله، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لا يسعد من جحد وكذّب.

الختام بالدعاء والنصيحة ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾: إيقاف للمؤمن على ثغرة الأمل والسلامة، في مقابل قسوة مصير المستكبرين.

نظرة سياقية تدبرية: يوضح البقاعي – رحمه الله - تناسب أول السورة مع آخرها: بدأت السورة بـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وتنتهي الآيات بنفي الفلاح عن أضدادهم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، وبدأت بالخشوع والصلة بالله وختمت بالتضرع والتسلح بالمغفرة والرحمة ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

*

سورة النور

تسمية السورة

(سورة النور) هو الاسم التوقيفي المشهور والمعتمد في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وسميت به لورود آية النور فيها وافتتاحها بتنوير الأحكام والتشريعات.

وهي سورة مدنية، وعدد آياتها في مدرسة الكوفة والبصرة والشام 64 آية بينما عدها في مدرسة العد المكي 62 آية، فثم آيات مثل (يسبح له فيها بالغدو والأصال) تعد آية في العد الكوفي والبصري وتعد مع ما بعدها آية في مدرسة العد المكي، وكذا قوله تعالى (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) .

سبب النزول:

لم يرد أو يحفظ سبب نزول للسورة كاملة، ولكن بعض آياتها ورد في نزولها أو فضلها أحاديث صحيحة محفوظة في كتب السنّة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنَّ مِرثَدَ بنَ أبي مِرثدٍ الغنَويَّ كانَ يحملُ الأسارى بمَكَّةَ، وَكانَ بمَكَّةَ بغيٌّ يقالُ لَها : عَناقُ وَكانت صديقتَهُ – أي قبل إسلامه -، قالَ: جِئتُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ فقُلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أنكِحُ عَناقَ؟

قالَ فسَكَتَ عنِّي، فنزلت: (والزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) فدعاني فقرأَها عليَّ وقالَ: لا تنكِحْها [1].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنَّ هِلالَ بنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امرَأتَه عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بشَريكِ بنِ سَحماءَ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: البَيِّنةَ أو حَدٌّ في ظَهرِك، فقال: يا رَسولَ اللهِ، إذا رَأى أحَدُنا على امرَأتِه رَجُلًا يَنطَلِقُ يَلتَمِسُ البَيِّنةَ! فجَعَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: البَيِّنةَ، وإلَّا حَدٌّ في ظَهرِك، فقال هِلالٌ: والذي بَعَثَك بالحَقِّ إنِّي لَصادِقٌ، فلَيُنزِلَنَّ اللهُ ما يُبَرِّئُ ظَهري مِنَ الحَدِّ، فنَزَلَ جِبريلُ وأنزَلَ عليه: (والذينَ يَرمونَ أزواجَهم)، فقَرَأ حتَّى بَلَغَ: (إن كان مِنَ الصَّادِقينَ) [النور: 6 – 9] . فانصَرَفَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأرسَلَ إليها، فجاءَ هِلالٌ فشَهِدَ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّ أحَدَكُما كاذِبٌ، فهل منكما تائِبٌ؟ ثُمَّ قامَت فشَهِدَت، فلَمَّا كانَت عِندَ الخامِسةِ وقَّفوها، وقالوا: إنَّها موجِبةٌ، قال ابنُ عبَّاسٍ: فتلَكَّأت ونَكَصَت، حتَّى ظَنَنَّا أنَّها تَرجِعُ، ثُمَّ قالت: لا أفضَحُ قَومي سائِرَ اليَومِ، فمَضَت، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أبصِروها؛ فإن جاءَت به أكحَلَ العَينَينِ، سابِغَ الأليَتَينِ، خَدَلَّجَ السَّاقَينِ، فهو لشَريكِ بنِ سَحماءَ، فجاءَت به كَذلك، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لَولا ما مَضى مِن كِتابِ اللهِ لَكان لي ولَها شَأنٌ. [2].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: قال سَعدُ بنُ عُبادةَ: لو رَأيتُ رَجُلًا مع امرَأتي لَضَرَبتُه بالسَّيفِ غيرَ مُصفَحٍ، فبَلَغَ ذلك رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: أتَعجَبونَ مِن غَيرةِ سَعدٍ؟! واللهِ لَأنا أغيَرُ منه، واللهُ أغيَرُ مِنِّي، ومِن أجلِ غَيرةِ اللهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا أحَدَ أحَبُّ إليه العُذرُ مِنَ اللهِ، ومِن أجلِ ذلك بَعَثَ المُبَشِّرينَ والمُنذِرينَ، ولا أحَدَ أحَبُّ إليه المِدحةُ مِنَ اللهِ، ومِن أجلِ ذلك وعَدَ اللهُ الجَنَّةَ [3].

وسببُ قولِ سعدٍ ذلك ما ورَدَ عندَ أحمَدَ من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما: «لمَّا نزَلَتْ هذه الآيةُ (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا) [النور: 4]، قالَ سعدُ بنُ عُبادةَ -وهو سيِّدُ الأنصارِ-: أهكذا أُنزِلَتْ يا رسولَ اللهِ؟» الحديثَ، وفيه: «واللهِ يا رسولَ اللهِ، إنِّي لَأعلَمُ أنَّها حقٌّ، وأنَّها منَ اللهِ، ولكنِّي قد تَعجَّبتُ أنِّي لو وَجدتُ لَكاعًا قد تَفخَّذَها رَجلٌ، لم يَكُنْ لي أنْ أَهِيجَهُ ولا أُحَرِّكَه حتَّى آتِيَ بأَربَعَةِ شُهَداءَ، فواللهِ لا آتِي بهِم حتَّى يَقضِيَ حاجَتَه»، وبيَّنَ أنَّه سيُعاجِلُه بالقَتلِ، وكانَ ذلك قبلَ نُزولِ آيةِ المُلاعَنةِ.

---

1 - أخرجه أبو داود (2051) واللفظ له، والترمذي (3177)، والنسائي (3228) مطولاً، وصحح الألباني إسناده في صحيح أبي داود.

2 - أخرجه البخاري (4747) من أفراد البخاري على مسلم.

3 - أخرجه البخاري (7416) ومسلم (1499)، وأحمد (18168)، وأبو عوانة (5157) واللفظ لهم.

فبَلَغ ذلك رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ لأصحابِه: «أَتَعْجَبُونَ من غَيْرَةِ سَعْدٍ؟«! . .الخ[1].

كما أنّ قِصَّةُ الإفْكِ الَّتي اتُّهِمتْ فيها أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها في عِرضِها بُهتانًا وكَذِبًا؛ كانت مِن أعظمِ الحوادثِ، وكانت اخْتِبارًا حَقيقيًّا لصِدْقِ الإيمانِ لدَى كَثيرٍ مِنَ المسلِمينَ، وقدْ أَنْزَلَ اللهُ بَيانًا واضِحًا لبَراءتِها، وهذا مِنْ فَضْلِ اللهِ عليها وعلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والأُمَّةِ كُلِّها.

عن عائِشةَ بنت الصديق رضي الله عنها قالت: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أرادَ أن يَخرُجَ سَفَرًا أقرَعَ بينَ أزواجِه، فأيَّتُهنَّ خَرَجَ سَهمُها، خَرَجَ بها معهُ، فأقرَعَ بينَنا في غَزاةٍ غَزاها، فخَرَجَ سَهمي، فخَرَجتُ معهُ بَعدَ ما أُنزِلَ الحِجابُ، فأنا أُحمَلُ في هَودَجٍ، وأُنزَلُ فيه، فسِرنا، حتَّى إذا فرَغَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن غَزوتِه تلك، وقَفَلَ ودَنَونا مِنَ المَدينةِ؛ آذَنَ لَيلةً بالرَّحيلِ، فقُمتُ حينَ آذَنوا بالرَّحيلِ، فمَشَيتُ حتَّى جاوزتُ الجَيشَ، فلَمَّا قَضَيتُ شَأني أقبَلتُ إلى الرَّحلِ، فلَمَستُ صَدري، فإذا عِقدٌ لي مِن جَزعِ أظفارٍ قدِ انقَطَعَ، فرَجَعتُ، فالتَمَستُ عِقدي، فحَبَسَني ابتِغاؤُه، فأقبَلَ الذينَ يَرحَلونَ لي، فاحتَمَلوا هَودَجي، فرَحَلوه على بَعيري الذي كُنتُ أركَبُ وهم يَحسِبونَ أنِّي فيه، وكان النِّساءُ إذ ذاكَ خِفافًا لَم يَثقُلنَ ولَم يَغشَهنَّ اللَّحمُ، وإنَّما يَأكُلنَ العُلقةَ مِنَ الطَّعامِ، فلَم يَستَنكِرِ القَومُ حينَ رَفَعوه ثِقَلَ الهَودَجِ، فاحتَمَلوه وكُنتُ جاريةً حَديثةَ السِّنِّ، فبَعَثوا الجَمَلَ وساروا، فوجَدتُ عِقدي بَعدَ ما استَمَرَّ الجَيشُ، فجِئتُ مَنزِلَهم وليسَ فيه أحَدٌ، فأمَمتُ مَنزِلي الذي كُنتُ به، فظَنَنتُ أنَّهم سَيَفقِدونَني، فيَرجِعونَ إليَّ، فبينا أنا جالِسةٌ غَلَبَتني عَينايَ، فنِمتُ، وكان صَفوانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلَميُّ ثُمَّ الذَّكوانيُّ مِن وراءِ الجَيشِ، فأصبَحَ عِندَ مَنزِلي، فرَأى سَوادَ إنسانٍ نائِمٍ، فأتاني، وكان يَراني قَبلَ الحِجابِ، فاستَيقَظتُ باسترجاعِه حينَ أناخَ راحِلَتَه فوطِئَ يَدَها، فرَكِبتُها، فانطَلَقَ يَقودُ بي الرَّاحِلةَ حتَّى أتَينا الجَيشَ بَعدَ ما نَزَلوا مُعَرِّسينَ في نَحرِ الظَّهيرةِ، فهَلَكَ مَن هَلَكَ، وكان الذي تَولَّى الإفكَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ، فقدِمنا المَدينةَ، فاشتَكَيتُ بها شَهرًا، والنَّاسُ يُفيضونَ مِن قَولِ أصحابِ الإفكِ، ويَريبُني في وجَعي أنِّي لا أرى مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اللُّطفَ الذي كُنتُ أرى منه حينَ أمرَضُ، إنَّما يَدخُلُ فيُسَلِّمُ، ثُمَّ يقولُ: كيفَ تيكُم؟ لا أشعُرُ بشَيءٍ مِن ذلك حتَّى نَقَهتُ، فخَرَجتُ أنا وأُمُّ مِسطَحٍ قِبَلَ المَناصِعِ؛ مُتَبَرَّزُنا، لا نَخرُجُ إلَّا لَيلًا إلى لَيلٍ، وذلك قَبلَ أن نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَريبًا مِن بُيوتِنا، وأمرُنا أمرُ العَرَبِ الأُوَلِ في البَرِّيَّةِ أو في التَّنَزُّهِ، فأقبَلتُ أنا وأُمُّ مِسطَحٍ بنتُ أبي رُهمٍ نَمشي، فعَثَرَت في مِرطِها، فقالت: تَعِسَ مِسطَحٌ، فقُلتُ لَها: بئسَ ما قُلتِ! أتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدرًا؟! فقالت: يا هَنتاه، ألَم تَسمَعي ما قالوا؟ فأخبَرَتني بقَولِ أهلِ الإفكِ، فازدَدتُ مَرَضًا على مَرَضي، فلَمَّا رَجَعتُ إلى بَيتي دَخَلَ عليَّ رَسولُ اللهِ صلَّى

1 - انظر الدرر السينة في شرح حديث المغيرة.

اللهُ عليه وسلَّم، فسَلَّمَ فقال: كيفَ تيكُم؟ فقُلتُ: ائذَنْ لي إلى أبَويَّ، قالت: وأنا حينَئِذٍ أُريدُ أن أستَيقِنَ الخَبَرَ مِن قِبَلِهما، فأذِنَ لي رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأتَيتُ أبَويَّ فقُلتُ لأُمِّي: ما يَتَحَدَّثُ به النَّاسُ؟ فقالت: يا بُنَيَّةُ، هَوِّني على نَفسِكِ الشَّأنَ؛ فواللهِ لَقَلَّما كانَتِ امرَأةٌ قَطُّ وضيئةٌ عِندَ رَجُلٍ يُحِبُّها ولَها ضَرائِرُ، إلَّا أكثَرنَ عليها، فقُلتُ: سُبحانَ اللهِ! ولقد يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بهذا؟! قالت: فبِتُّ تلك اللَّيلةَ حتَّى أصبَحتُ لا يَرقَأُ لي دَمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنَومٍ، ثُمَّ أصبَحتُ، فدَعا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَليَّ بنَ أبي طالِبٍ وأُسامةَ بنَ زَيدٍ حينَ استَلبَثَ الوحيُ، يَستَشيرُهما في فِراقِ أهلِه، فأمَّا أُسامةُ فأشارَ عليه بالذي يَعلَمُ في نَفسِه مِنَ الوُدِّ لهم، فقال أُسامةُ: أهلُكَ يا رَسولَ اللهِ، ولا نَعلَمُ -واللهِ- إلَّا خَيرًا، وأمَّا عَليُّ بنُ أبي طالِبٍ فقال: يا رَسولَ اللهِ، لَم يُضَيِّقِ اللهُ عليك، والنِّساءُ سِواها كَثيرٌ، وسَلِ الجاريةَ تَصدُقكَ، فدَعا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَريرةَ، فقال: يا بَريرةُ، هل رَأيتِ فيها شيئًا يَريبُكِ؟ فقالت بَريرةُ: لا والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، إن رَأيتُ منها أمرًا أغمِصُه عليها قَطُّ أكثَرَ مِن أنَّها جاريةٌ حَديثةُ السِّنِّ، تَنامُ عَنِ العَجينِ، فتَأتي الدَّاجِنُ فتَأكُلُه، فقامَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن يَومِه، فاستَعذَرَ مِن عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن يَعذِرُني مِن رَجُلٍ بَلَغَني أذاه في أهلي؟! فواللهِ ما عَلِمتُ على أهلي إلَّا خَيرًا، وقد ذَكَروا رَجُلًا ما عَلِمتُ عليه إلَّا خَيرًا، وما كان يَدخُلُ على أهلي إلَّا مَعي، فقامَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أنا واللهِ أعذِرُكَ منه؛ إن كان مِنَ الأوسِ ضَرَبنا عُنُقَه، وإن كان مِن إخوانِنا مِنَ الخَزرَجِ أمَرتَنا، ففَعَلنا فيه أمرَكَ، فقامَ سَعدُ بنُ عُبادةَ -وهو سَيِّدُ الخَزرَجِ، وكان قَبلَ ذلك رَجُلًا صالِحًا ولَكِنِ احتَمَلَتْه الحَميَّةُ- فقال: كَذَبتَ لَعَمرُ اللهِ، لا تَقتُلُه، ولا تَقدِرُ على ذلك، فقامَ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ فقال: كَذَبتَ لَعَمرُ اللهِ، واللهِ لَنَقتُلَنَّه؛ فإنَّكَ مُنافِقٌ تُجادِلُ عَنِ المُنافِقينَ، فثارَ الحَيَّانِ -الأوسُ والخَزرَجُ- حتَّى هَمُّوا، ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المِنبَرِ، فنَزَلَ، فخَفَّضَهم حتَّى سَكَتوا، وسَكَتَ، وبَكَيتُ يَومي لا يَرقَأُ لي دَمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنَومٍ، فأصبَحَ عِندي أبَوايَ، وقد بَكَيتُ لَيلَتَينِ ويَومًا حتَّى أظُنُّ أنَّ البُكاءَ فالِقٌ كَبِدي، قالت: فبينا هُما جالِسانِ عِندي وأنا أبكي، إذِ استَأذَنَتِ امرَأةٌ مِنَ الأنصارِ، فأذِنتُ لَها، فجَلَسَت تَبكي مَعي، فبينا نَحنُ كَذلك إذ دَخَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فجَلَسَ، ولَم يَجلِسْ عِندي مِن يَومِ قيلَ فيَّ ما قيلَ قَبلَها، وقد مَكَثَ شَهرًا لا يوحى إليه في شَأني شَيءٌ، قالت: فتَشَهَّدَ، ثُمَّ قال: يا عائِشةُ؛ فإنَّه بَلَغَني عَنكِ كَذا وكَذا، فإن كُنتِ بَريئةً فسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وإن كُنتِ ألمَمتِ بذَنبٍ فاستَغفِري اللهَ وتوبي إليه؛ فإنَّ العَبدَ إذا اعتَرَفَ بذَنبِه ثُمَّ تابَ، تابَ اللهُ عليه، فلَمَّا قَضى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَقالتَه، قَلَصَ دَمعي حتَّى ما أُحِسُّ منه قَطرةً، وقُلتُ لأبي: أجِبْ عَنِّي رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلتُ لأُمِّي: أجيبي عَنِّي رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما قال، قالت: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالت: وأنا جاريةٌ حَديثةُ السِّنِّ، لا أقرَأُ كَثيرًا مِنَ القُرآنِ، فقُلتُ: إنِّي واللهِ لقد عَلِمتُ أنَّكُم سَمِعتُم ما يَتَحَدَّثُ به النَّاسُ، ووقَرَ في أنفُسِكُم وصَدَّقتُم به، ولَئِن قُلتُ لكم: إنِّي بَريئةٌ -واللهُ يَعلَمُ إنِّي

لَبَريئةٌ- لا تُصَدِّقوني بذلك، ولَئِنِ اعتَرَفتُ لكم بأمرٍ -واللهُ يَعلَمُ أنِّي بَريئةٌ- لَتُصَدِّقُنِّي، واللهِ ما أجِدُ لي ولَكُم مَثَلًا إلَّا أبا يوسُفَ إذ قال: (فصَبرٌ جَميلٌ فصَبرٌ جَميلٌ واللهُ المُستَعانُ على ما تَصِفونَ)]يوسف: 18 [، ثُمَّ تَحَوَّلتُ على فِراشي وأنا أرجو أن يُبَرِّئَني اللهُ، ولَكِن واللهِ ما ظَنَنتُ أن يُنزِلَ في شَأني وحيًا، ولَأنا أحقَرُ في نَفسي مِن أن يُتَكَلَّمَ بالقُرآنِ في أمري، ولَكِنِّي كُنتُ أرجو أن يَرى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّومِ رُؤيا يُبَرِّئُني اللهُ، فواللهِ ما رامَ مَجلِسَه ولا خَرَجَ أحَدٌ مِن أهلِ البَيتِ، حتَّى أُنزِلَ عليه الوحيُ، فأخَذَه ما كان يَأخُذُه مِنَ البُرَحاءِ، حتَّى إنَّه لَيَتَحَدَّرُ منه مِثلُ الجُمانِ مِنَ العَرَقِ في يَومٍ شاتٍ، فلَمَّا سُرِّيَ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَضحَكُ، فكان أوَّلَ كَلِمةٍ تَكَلَّمَ بها أن قال لي: يا عائِشةُ، احمَدي اللهَ؛ فقد بَرَّأكِ اللهُ، فقالت لي أُمِّي: قومي إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلتُ: لا واللهِ، لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ إلَّا اللهَ، فأنزَلَ اللهُ تَعالى: (إنَّ الذينَ جاؤوا بالإفكِ عُصبةٌ مِنكُم)]النور: 11] الآياتِ، فلَمَّا أنزَلَ اللهُ هذا في بَراءَتي، قال أبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ رَضيَ اللهُ عنه -وكان يُنفِقُ على مِسطَحِ بنِ أُثاثةَ لقَرابَتِه منه-: واللهِ لا أُنفِقُ على مِسطَحٍ شيئًا أبَدًا بَعدَ ما قال لعائِشةَ، فأنزَلَ اللهُ تَعالى: (ولا يَأتَلِ أُولُو الفَضلِ مِنكُم والسَّعةِ أن يُؤتوا) إلى قَولِه: (غَفورٌ رَحيمٌ)]النور: 22]، فقال أبو بَكرٍ: بَلى واللهِ إنِّي لَأُحِبُّ أن يَغفِرَ اللهُ لي، فرَجَعَ إلى مِسطَحٍ الذي كان يُجري عليه، وكان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسألُ زَينَبَ بنتَ جَحشٍ عن أمري، فقال: يا زَينَبُ، ما عَلِمتِ؟ ما رَأيتِ؟ فقالت: يا رَسولَ اللهِ، أحمي سَمعي وبَصَري، واللهِ ما عَلِمتُ عليها إلَّا خَيرًا، قالت: وهي التي كانَت تُساميني، فعَصَمَها اللهُ بالورَعِ [1].

بسم الله الرحمن الرحيم

*(سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (2) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ(10)).

1 - أخرجه البخاري (2661) واللفظ له، ومسلم (2770)، وأحمد (25623) ، والنسائي في الكبرى (8882) بنحوه

هذه الآيات الكريمة هي المطلع والافتتاحية لسورة النور؛ وهي سورة أُنيطت بأحكام العفاف، وحماية الأعراض، وطهارة المجتمع المسلم من الفاحشة وشائعاتها.

وقد أجمع العلماء على أن هذه السورة تمتاز بنبرة التشريع الحاسم المقترن بالتثبيت الإيماني والتهذيب الوجداني.

*﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، إشراقة أسلوب بلاغية:

جاء قوله ﴿سُورَةٌ﴾ مرفوعاً على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره "هذه سورة"، وجاءت نكرة للتفخيم والتعظيم. تنكيرها يعطي دلالة بأنها سورة عظيمة الشأن فريدة في بابها.

قرئ "فَرَّضْناها" بالتشديد (لتكثير الأحكام وتأكيدها) وقرئ "فَرَضْناها" بالتخفيف (أي أوجبنا أحكامها قطعا). الجمع بين ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ و﴿فَرَضْنَاهَا﴾ يربط بين مصدر التشريع من الله جل وتعالى من عالي سماواته وإلزامية التطبيق على الأرض.

يرى ابن عاشور – رحمه الله - أنّ إسناد الإنزال والفرض إلى ضمير العظمة ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ فيه براعة استهلال تنبه السامع إلى أنّ ما سيتلى ليس مجرد توجيهات أخلاقية عامة، بل فرائض حتمية ملزمة.

أمّا البقاعي - رحمه الله - فيلاحظ أنّ السورة سُميت بالنور لأنّ أحكامها تضيء ظلمات الشهوات، واستفتاحها بفرض الأحكام إشارة إلى أنّ النور لا يتحقق إلاّ بالالتزام بتلك الحدود.

*﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ورد في شروط من يستحق الجلد أن يكون (1-حراً)، وأما العبد فعلى النصف من حد الحر، (2-بالغاً)، وأمّا من دون البلوغ فيعزر، (3-عاقلاً)، وأما المجنون فيعزر كذلك، (4-بكراً) و(5-غير محصن)، لأن الثيب المحصن إذا زنى فعقوبته الرجم.

وقد نزلت قبل هذه الآيات آية سورة النساء (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا) [النساء:15].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان نَبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أُنزِلَ عليه كُرِبَ لذلك، وتَرَبَّدَ له وجْهُه، قال: فأُنزِلَ عليه ذاتَ يَومٍ، فلُقيَ كَذلك، فلَمَّا سُرِّيَ عنه، قال: خُذوا عَنِّي، فقد جَعَلَ اللهُ لهنَّ سَبيلًا؛ الثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ، والبِكرُ بالبِكرِ،

الثَّيِّبُ جَلدُ مِائةٍ، ثُمَّ رَجمٌ بالحِجارةِ، والبِكرُ جَلدُ مِائةٍ، ثُمَّ نَفيُ سَنةٍ. وفي روايةٍ: البِكرُ يُجلَدُ ويُنفى، والثَّيِّبُ يُجلَدُ ويُرجَمُ، لا يَذكُرانِ سَنةً ولا مِائةً [1].

وقد ذكر الضرب بلفظ الجلد (فَاجْلِدُوا)، لئلا يبرّح ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم.

وقد أخذ من حديث عبادة بن الصامت أعلاه التغريب، وقيل: إن التغريب من باب تغليظ العقوبة.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ) أي: رَحْمَةٌ وَرِقَّةٌ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ (رأفة) بفتح الهمزة، وإسكان الهمزة وفتحها لغتان لا يتغير بهما المعنى، والرأفة معنى يكون فِي الْقَلْبِ، لَا يُنْهَى عَنْهُ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ بِاخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ، ولهذا اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْآيَةِ، فَقَالَ قَوْمٌ: لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فَتُعَطِّلُوا الْحُدُودَ وَلَا تُقِيمُوهَا وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالنَّخَعِيِّ وَالشَّعْبِيِّ. وَقَالَ جَمَاعَةٌ: مَعْنَاهَا وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فَتُخَفِّفُوا الضَّرْبَ وَلَكِنْ أَوجِعُوهُمَا ضَرْبًا، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالْحَسَنِ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: يُجْتَهَدُ فِي حَدِّ الزِّنَا وَالْفِرْيَةِ وَيُخَفَّفُ فِي حَدِّ الشُّرْبِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: يُجْتَهَدُ فِي حَدِّ الزِّنَا وَيُخَفَّفُ فِي الشُّرْبِ وَالْفِرْيَةِ.

(فِي دِينِ اللَّهِ) أي: في حكم الله، (إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﷺ) أي أن المؤمن لا تأخذه رأفة إذا جاء أمر الله تعالى، (وَلْيَشْهَدْ) أي: ليحضر، (عَذَابَهُمَا) حدهما إذا أقيم عليهما، (طَائِفَةٌ) نفر، (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال مجاهد والنخعي: أقله رجل واحد فما فوقه، وقال عكرمة وعطاء: رجلان فصاعداً، وقال الزهري وقتادة: ثلاثة فصاعداً، وقال مالك وابن زيد: أربعة بعدد شهود الزنا[2].

بلاغة التقديم والتأخير: قُدِّمت ﴿الزَّانِيَةُ﴾ على ﴿الزَّانِي﴾ هنا، بينما قُدِّم السارق على السارقة في سورة المائدة.

العلة البيانية: الدافع لفاحشة الزنا من جهة المرأة أشبه بالتمهيد والقبول، ولدورها الأكبر في إشاعة الفاحشة إن تساهلت في الحجاب والمحرم، أو خضعت بالقول، ولأن لحوق العار والنسب بها أشد وأعظم، فبدئ بها تحذيراً وتنفيراً.

وقد قيل:

لكل ساقطة في الحي لاقطة..... وكل كاسدة يوما لها سوق

---

1 - أخرجه مسلم (1690)، وأحمد (22703) ، والنسائي في الكبرى (7926) ، وابن حبان (4443) باختلاف يسير.

2 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص816).

الأسلوب الشديد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾: نهيٌ للأنفس البشرية التي قد تتأثر بطلب الرحمة أو قرابة الجاني. الرأفة العاطفية في مواضع الحدود تُبطل مقاصد الشريعة.

وعن عروة بن الزبير في حديث المخزومية التي سرقت، فشفعوا أسامة رضي الله عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَتُكَلِّمُني في حَدٍّ مِن حُدودِ اللهِ؟! قال أُسامةُ، - وفي رواية: يا أسامةُ! أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حدودِ اللهِ – إلى أن قال صلى الله عليه وسلم - والذي نَفسُ مُحَمَّدٍ بيَدِه، لو أنَّ فاطِمةَ بنتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَت لَقَطَعتُ يَدَها. ثُمَّ أمَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتلك المَرأةِ، فقُطِعَت يَدُها، فحَسُنَت تَوبَتُها بَعدَ ذلك وتَزَوَّجَت. قالت عائِشةُ: فكانَت تَأتي بَعدَ ذلك فأرفَعُ حاجَتَها إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم [1].

التشهير بالحد: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: سمى الجلد "عذاباً"، وأمر بحضور "طائفة" ليتعدى الزجر من الجاني نفسه إلى المجتمع، وفي ذلك ردع عام وطهارة مجتمعية.

يشير سيد قطب – رحمه الله - إلى أن الإسلام لا يطبق هذه العقوبة في فراغ، بل يبني مجتمعاً نظيفاً يسهل فيه الحلال ويصعب الحرام، فإذا أصر الجاني بعد كل هدم لسبيل الغواية، جاء الجلد حازماً لحماية القيمة العظمى: "عرض المجتمع ونظافته".

*﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

سبق أنّ سبب نزول هذه الآية استئذان بعض الصحابة لينكحوا بعض الزواني، ولعله مرثد بن أبي مرد الغنوي فقط، ذكر ابن القيم في إعلام الموقعين أنّه - صلى الله عليه وسلم- رجل آخر عن نكاح امرأة يُقال لها أم مهزول كانت تسافح، فتلا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية بعد أن نزلت [2].

الآية صيغت بصيغة الخبر ﴿لَا يَنكِحُ﴾، لكن المراد بها النهي والتغليظ (أي لا ينبغي ولا يحسن بمؤمن عفيف أن يرتضي لنفسه الخبيث/الخبيثة).

---

1 - أخرجه البخاري (4304، 3475)، ومسلم (1688)، وأبو داود (4373) واللفظ له، والترمذي (1430)، والنسائي (4899)، وابن ماجه(2547)

2 - مسند أحمد (6480) من حديث عبد الله بن عمرو، وكذلك النسائي في «الكبرى» (11295)، وفيه الحضرمي بن لاحق، لا بأس به. وثَّق رجاله الهيثمي (7/ 76)، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (1886)

المشاكلة والمناسبة: الطبع العفيف ينفر من الطبع الفاسد. اقتران الزاني بالزانية أو المشركة بياناً لانحطاط قدر المرتكب للفاحشة حتى كأنه لا يلتقي إلاّ بمن يماثله في الانحلال أو الجرأة على حدود الله.

يطيل ابن القيم في (إعلام الموقعين) تحليل هذه الآية، موضحاً أن الخبث ينجذب إلى الخبث طبعاً وقدر شرعاً، وأن الله جعل النكاح سبباً للصيانة والمودة، والزنا ضد ذلك تماماً، فلا يجتمع العفاف والخبث في فراش واحد يتصل به النسب ولاتُبنى عليه الأسرة المسلمة المستقيمة، قال: «فأخذ بهذه الفتاوى التي لا معارض لها الإمام أحمد ومن وافقه. وهي من محاسن مذهبه، فإنه لم يجوّز أن يكون الرجل زوج قَحْبة. ويعضد مذهبَه بضعة وعشرون دليلًا قد ذكرناها في موضع آخر» [1].

وفي بعض فتاوي موقع إسلام ويب: أي الزانية بعد أن رضيت بالزنا فولغ فيها كلب شهوة الزاني لا يليق أن ينكحها من حيث إنها كذلك إلا من هو مثلها وهو الزاني أو من هو أسوأ حالا منها وهو المشرك، وأما المسلم العفيف: فإن غيرته تأبى ورود جفرتها .انتهى بتصرف يسير.. إلى أن قال: لا يلزم أن يتزوج الزاني امرأة قد زنت، خصوصاً إذا تاب هذا الزاني من زناه، وأمّا من لم يتب فيخشى على زوجته ـ وإن كانت عفيفة عندما تزوجها ـ أن تزني بسبب ما تعلم من إصرار زوجها على الزنا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى :فَلَا يَكَادُ يُعْرَفُ فِي نِسَاءِ الرِّجَالِ الزُّنَاةِ الْمُصِرِّينَ عَلَى الزِّنَا الَّذِينَ لَمْ يَتُوبُوا مِنْهُ امْرَأَةٌ سَلِيمَةٌ سَلَامَةً تَامَّةً، وَطَبْعُ الْمَرْأَةِ يَدْعُو إلَى الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ إذَا رَأَتْ زَوْجَهَا يَذْهَبُ إلَى النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: بَرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ، وَعِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ [2].

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يُحَرِّمُ نِكَاحَ الزَّانِيَةِ وَيَقُولُ: إذَا تَزَوَّجَ الزَّانِي بِالزَّانِيَةِ فَهُمَا زَانِيَانِ أَبَدًا. وَقَالَ الْحَسَنُ: الزَّانِي الْمَجْلُودُ لَا يَنْكِحُ إلَّا زَانِيَةً مَجْلُودَةً وَالزَّانِيَةُ الْمَجْلُودَةُ لَا يَنْكِحُهَا إلَّا زَانٍ مَجْلُودٌ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَجَمَاعَةٌ: إنَّ حُكْمَ الْآيَةِ مَنْسُوخٌ، فَكَانَ نِكَاحُ الزَّانِيَةِ حَرَامًا بِهَذِهِ الْآيَةِ فَنَسَخَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: "وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ" فَدَخَلَتِ الزَّانِيَةُ فِي أَيَامَى الْمُسْلِمِينَ.

ذكر هذه الأقوال الطبري – رحمه الله - ثم قال مرجحا: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بالنكاح في هذه الموضع: الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات، وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من

---

1 - انظر ابن القيم: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ): إعلام الموقعين عن رب العالمين (ج6/ص441)، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

2 - انظر موقع إسلام ويب، إجابة الفتوى (348148، 13904)، أمّا الحديث (عفوا تعف نسائكم) فمن العلماء مع يضعفه، والله أعلم.

عبدة الأوثان. فمعلوم إذ كان ذلك كذلك، أنه لم يعن بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات، ولا ينكح إلا بزانية أو مشركة. وإذ كان ذلك كذلك، فبين أن معنى الآية: الزاني لا يزني إلاّ بزانية لا تستحل الزنا، أو بمشركة تستحله [1].

*﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

إشراقة بلاغية: استخدام الفعل ﴿يَرْمُونَ﴾ فيها ما يسميه البلاغيون: استعارة مكنية بليغة؛ حيث شُبّه القذف بالقذف بالحجارة أو السهام، لأن الاتهام بالفاحشة يمزق العرض كما يمزق السهم البدن.

الصرامة في طلب الإثبات: اشتراط ﴿أَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ (يشهدون بالرؤية المباشرة الدقيقة) يجعل إثبات الحد بالشهادة شبه مستحيل عملياً، والمقصود من ذلك هو إغلاق باب القذف والتطاول على الأعراض، فمن لم يأت بالأربعة فهو قاذف مجلود وإن كان صادقاً في نفسه.

العقوبة الثلاثية: رتب الشارع على القاذف ثلاثة أحكام: بدنية: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، وأدبية/حقوقية: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ (إسقاط الاعتبار الاجتماعي). ودينية: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

روى مسلم عن عائشة أنها قالت: وكان الذين تكلموا به مسطح وحمنة وحسان. وروى أبو داود عنها بسند حسنه الألباني أنها قالت: لمّا نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم [2].

وقد بينت الروايات أن من خاض في الإفك – أي من الصحابة – رضوان الله عليهم - قد تاب - ماعدا ابن أبي -وقد اعتذر حسان - رضي الله عنه - عما كان منه وقال يمدح عائشة بما هي أهل له:

حصان رزان ما تزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصبا * نبي الهدى والمكرمات الفواضل

---

1 - انظر الطبري: تفسير الطبري: 18 / 74-75، والبغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم السنن)(ص817).

2 - أخرجه أبو داود (4474) واللفظ له، والترمذي (3181)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7351)، وابن ماجه (2567)، وأحمد24066) ، وصحح الألباني إسناده في صحيح أبي داود.

قال عروة بن الزبير وابن أسماء أخت عائشة رضي الله عنها– رحمه الله ورضي عنه- كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان رضي الله عنه، وتقول: إنه الذي يقول:

فإنّ أبي ووالدتي وعرضي* لعرض محمد منكم فداء

عَن هِشامِ بنِ عُروةَ، عن أبيه، قال: ذَهَبتُ أسُبُّ حَسَّانَ عِندَ عائِشةَ، فقالت: لا تَسُبُّه؛ فإنَّه كان يُنافِحُ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

وقال الذهبي – رحمه الله - في (سيرأعلام النبلاء): وقصة عمر مشهورة في جلده أبا بكرة، ونافعاً، وشبل بن معبد لشهادتهم على المغيرة بالزنا ثم استتابهم فأبى أبو بكرة أن يتوب وتاب الآخران، ثم قال: قال البيهقي: إن صح هذا فلأنه امتنع من التوبة من قذفه، وأقام على ذلك، قلت: كأنه يقول: لم أقذف المغيرة، وإنما أنا شاهد .انتهى

وليعلم أن أبا بكرة وصاحبيه عندما شهدوا على المغيرة قد كان معهم شاهد رابع ولكنه تراجع مما جعل عمر ضي الله عنه لا يجد مناصاً إلاّ أن يحد الثلاثة حد القذف عملاً بقوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [النور:4]. وهذا الحد لا يسقط عدالته ولا روايته ولا يؤثر أبداً في صحبته رضي الله عنه، وما زال أهل العلم يذكرونه بالفضل والثناء، منهم ابن الأثير حيث قال رحمه الله في أسد الغابة في معرفة الصحابة: وكان أبو بكرة من فضلاء أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وصالحيهم . انتهى [2].

وقال الحسن البصري: ولم ينزل البصرة أفضل من أبي بكرة وعمران بن الحصين رضي الله عنهما. والله أعلم [3].

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ادْرَؤوا الحدودَ عن المسلمين ما استطعتُم فإن كان له مخرجٌ فخَلُّوا سبيلَه فإنَّ الإمامَ إن يُخطِئ في العفوِ خيرٌ من أن يُخطِئَ في العُقوبةِ [4].

*﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، عود الاستثناء:

---

1 - أخرجه البخاري (6150)، ومسلم(2489)

2 - ابن الاثير: عز الدين ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ) عز الدين ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ): أسد الغابة في معرفة الصحابة(ج5/ص38)، دار الفكر، بيروت 1409هـ، 1989م.

3 - انظر موقع إسلام ويب جواب السؤال (28325، و33978) .

4 - أخرجه الترمذي (1424) واللفظ له، وابن أبي شيبة في ((المصنف)) (29094)، والحاكم (8163)، والبيهقي(17513) ، والحديث ضعيف، [فيه] يزيد بن زياد الدمشقي ضعيف في الحديث، لكن اتخذه العلماء قاعدة لتضافر أدلة أخرى على صحة معناه، والله أعلم.

مسألة أصولية ولغوية شهيرة؛ الاستثناء ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ يرجع إلى الجملة الأخيرة (الحكم بالفسق) باتفاق، والراجح عند جمهور العلماء (ومنهم ابن تيمية وابن القيم) أنه يرفع كذلك رد الشهادة إذا أصلح القاذف وحسنت توبته، أمّا حد الجلد فلا يسقطه التوبة لأنه حق للآدمي المطالب به.

أمّا التعبير بـ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: فيه عدم الاكتفاء بالذكر القلبي للتوبة، بل يشترط "الإصلاح" للتأكد من زوال أثر القذف وتأكيده تكذيب نفسه وإصلاح ما أفسده.

أحكام اللعان بين الزوجين: *﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

لما يسر الشارع الصرامة الشديدة في القذف الأجنبي (طلب 4 شهداء)، ظهرت مشكلة الزوج الذي يرى الفاحشة في بيته ولا يستطيع إحضار شهداء كما سبق تحت عنوان سبب النزول؛ فجاء التخفيف حلاً لمأزق الزوجية عبر مخرج اللعان.

الفروق اللفظية والبلاغية الدقيقة: في حق الزوج: ختم بالـ ﴿لَعْنَتَ﴾ في الخامسة؛ لأن اللعن هو الطرد من الرحمة وهو يتناسب مع شرف الرجل ورجولته إن كان كاذباً على زوجته.

أمّا في حق الزوجة: ختم بالـ ﴿غَضَبَ﴾ في الخامسة؛ والغضب أشد من اللعنة، لأن المرأة إن كانت كاذبة في دفع الاتهام عن نفسها فهي قد أدخلت على زوجها بيتاً ورجلاً وسرقت نسباً، فاستحقت تغليظ العبارة بـ "الغضب".

إشراقة بلاغة المقابلة والدرء: التعبير بـ ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يُفهم منه أن أيمان الزوج الأربع قامت مقام الشهود الأربعة وأوجبت العقوبة (الجلد أو الحد)، فجاءت شهادات الزوجة الأربع لتدرأ وتدفع هذا العذاب المترتب.

*﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، إشراقة بلاغية في إيجاز الحذف (حذف الجواب):

جاء جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوفاً للتهويل والتعظيم (تقديره: لهلكتم، أو لافتُضحتم، أو لضاقت عليكم الحيل ووقعت فيكم الشدائد).

إشراقة بلاغية في اقتران الأسماء الحسنى: ختمت بـ ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأن التوبة تفتح أبواب الأمل لمن ألمّ بذنب أو قذف، والحكمة تتجلى في التشريعات الدقيقة التي توازن بين صيانة الأعراض وحماية القلوب ودفع الحرج عن الناس.

خلاصة البناء السياقي للآيات: [افتتاحية تعظيم التشريع] (سورة أنزلناها وفرضناها)

ثم [عقوبة الزنا المباشر] ـــــ (الجلد 100 + المنع من العاطفة + شهود الطائفة)، ثم [التنفير والتقويم المسلكي] ـــ (الزاني لا ينكح إلا زانية...)

ثم جاء حد الفرية لحماية المجتمع من الاتهام الباطل، ويعرف بحد القذف 80 + رد الشهادة + الفسق)، أمّا [استثناء التوبة والأثر الاجتماعي] فكان (إلا الذين تابوا وأصلحوا

ثم جاء [المخرج الأسري عند الخيانة] ـــ (أحكام اللعان الخمسة)، ثم كانت [الختام بالامتنان والرحمة] ـــ (ولولا فضل الله عليكم ورحمته)

تتكامل الآيات في منظومة واحدة: تغلظ عقوبة الفاحشة لحماية العفاف، وتغلظ عقوبة القذف لحماية السمعة، وتستثني اللعان لحل المأزق الأسري، وتفتح باب التوبة لتطهير الأرواح.

*(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (12) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ(20))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة النور هي ملحمة قرآنية فريدة في بناء التربية الخُلقية، وحماية أمن المجتمع الفكري والأخلاقي؛ إذ نزلت في واحدة من أشد الأزمات التي واجهت المجتمع المسلم في المدينة: حادثة الإفك، والتطاول على عرض النبي صلى الله عليه وسلم في الطعن في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والبيت النبوي الشريف.

*(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

إشراقة بلاغية: (الإفك): أشد الكذب وأقبحه، وسمي إفكاً لأنه يقلب الحقائق، وهو لغة: من أفك الشيء إذا قلبه عن وجه الحق).

ومن تعود الكذب يقال له (أفاك) كما في قوله تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) [الجاثية:7]، على وزن (فَعَّال وفَعِيل) يدل على أن الكذب والذنب تحولا عنده إلى سجيّة وعمل مستمر لا ينقطع.

(عُصْبَةٌ): العصبة من العشرة إلى الأربعين، وتأتي من "التعصب"، أي جماعة شديدة التماسك والتعاضد على الشَر.

(مِّنكُم): خطَاب تنبيه وتأديب؛ أي هم بين أظهركم وينتسبون ظاهرًا لمجتمعكم (فيها إشارة إلى المنافقين ومن اغترّ برأيهم).

(لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ): الطباق البلاغي بين (الشر والخير). والخطاب للرسول ﷺ وآل بيته وللأمة.

السر البلاغي: نُكِّرَ "خيرٌ" ليفيد العموم والتعظيم؛ خيرٌ في تمحيص الصف، ومقام عائشة، وتنزيل قرآن يُتلى، وتشريع أحكام حماية الأعراض.

وقد قال أسيد بن حضير – رضي الله عنه - في حادثة نزول آية التيمم: ما هي بأوَّلِ بَرَكَتِكُم يا آلَ أبي بَكرٍ:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: خَرَجنا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في بَعضِ أسفارِه، حتَّى إذا كُنَّا بالبَيداءِ أو بذاتِ الجَيشِ، انقَطَعَ عِقدٌ لي، فأقامَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التِماسِه، وأقامَ النَّاسُ معهُ، ولَيسوا على ماءٍ، وليسَ معهُم ماءٌ، فأتى النَّاسُ إلى أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ، فقالوا: ألا تَرى ما صَنَعَت عائِشةُ، أقامَت برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبالنَّاسِ، ولَيسوا على ماءٍ، وليسَ معهُم ماءٌ؟ فجاءَ أبو بَكرٍ ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واضِعٌ رَأسَه على فخِذي قد نامَ، فقال: حَبَستِ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والنَّاسَ ولَيسوا على ماءٍ وليسَ معهُم ماءٌ، قالت عائِشةُ: فعاتَبَني أبو بَكرٍ، وقال ما شاءَ اللهُ أن يَقولَ، وجَعَلَ يَطعُنُني بيَدِه في خاصِرَتي، ولا يَمنَعُني مِنَ التَّحَرُّكِ إلَّا مَكانُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على فخِذي، فقامَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى أصبَحَ على غيرِ ماءٍ، فأنزَلَ اللهُ آيةَ التَّيَمُّمِ فتَيَمَّموا، فقال أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ: ما هي بأوَّلِ بَرَكَتِكُم يا آلَ أبي بَكرٍ، قالت: فبَعَثنا البَعيرَ الذي كُنتُ عليه فإذا العِقدُ تَحتَه [1].

يرى ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهما الله - أنّ المحن تخرج أفضل ما في النفوس، وأن الله تعالى يعاقب المفسدين بأن يقلب كيدهم خيراً للمؤمنين، ففي محن المؤمنين التمحيص والرفعة.

1 - أخرجه البخاري (334، 4607)، ومسلم(367)

أمّا سيد قطب – رحمه الله - فيبرز كيف أدار القرآن هذه الأزمة ليس كمأساة شخصية، بل كافتتاح لقانون استقرار المجتمع؛ فربّ ضارة نافعة، وقد انقلب المخطط الخبيث لإسقاط القدوة النبوية إلى تثبيت دعائم بيت النبي صلى الله عليه وسلم للأبد.

*(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ).

إشراقة بلاغية: (لَّوْلَا): حرف تحضيض وتوبيخ؛ أي "فهَلا" فعلتم!، (بِأَنفُسِهِمْ): التفات بلاغي بديع؛ لم يقل "ببعضهم" ولا "بإخوانهم"، بل قال بأنفسهم.

السر الأسلوبي: اعتبار الأمة جسداً واحداً؛ فالطعن في عائشة هو طعن في عرض كل مؤمن ومؤمنة، ومن طعن في أخته فقد طعن في نفسه.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم، وتَرَاحُمِهم، وتعاطُفِهِمْ مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تدَاعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى [1].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبك بين أصابعه [2].

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: إنَّ فَتًى شابًّا أتى النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقال: يا رسولَ اللهِ، ائْذَنْ لي بالزِّنا، فأقبَلَ القَومُ عليه فزَجَروه وقالوا: مَهْ، مَهْ! فقال: ادْنُهْ، فدَنا منه قَريبًا، قال: فجَلَسَ، قال: أتُحِبُّه لأُمِّكَ؟ قال: لا واللهِ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ، قال: ولا النَّاسُ يُحِبُّونَه لأُمَّهاتِهم، قال: أفتُحِبُّه لابنتِكَ؟ قال: لا واللهِ، يا رسولَ اللهِ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ، قال: ولا النَّاسُ يُحِبُّونَه لبَناتِهم، قال: أفتُحِبُّه لأُختِكَ؟ قال: لا واللهِ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ، قال: ولا النَّاسُ يُحِبُّونَه لأَخَواتِهم، قال: أفتُحِبُّه لعَمَّتِكَ؟ قال: لا واللهِ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ، قال: ولا النَّاسُ يُحِبُّونَه لعَمَّاتِهم، قال: أفتُحِبُّه لخالتِكَ؟ قال: لا واللهِ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ، قال: ولا النَّاسُ يُحِبُّونَه لخالاتِهم، قال: فوَضَعَ يدَه عليه وقال: اللَّهُمَّ اغفِرْ ذَنبَه، وطَهِّرْ قَلبَه، وحَصِّنْ فَرْجَه، قال: فلمْ يَكُنْ بعدَ ذلك الفَتى يَلتفِتُ إلى شيءٍ[3].

قلت: وكذا المؤمن لا يرضى الطعن في أمهات المؤمنين من باب أولى إلاّ من طمس الله بصيرته وأراد هدم الإسلام من الداخل.

---

1 - أخرجه البخاري (6011)، ومسلم (2586) واللفظ له

2 - أخرجه البخاري (481)، ومسلم (2585) باختلاف يسير.

3 - أخرجه أحمد (22211) واللفظ له، والطبراني (190/8) (7679)، وابن عدي في ((الكامل في الضعفاء)) (2/452) وصحح شعيب الأرناؤوط إسناده.

الالتفات من الخِطاب إلى الغيبة: قال (لولا إذ سمعتُموه) – خطاب -، ثم قال (ظنَّ المؤمنونَ) – غيبة -؛ إشارة إلى أنّ الموصوف بالإيمان الحقيقي هو من يستحضر إيمانه فيمنعه من الظن السوء.

يوضح ابن عاشور – رحمه الله - كيف يرسخ القرآن "أصل البراءة" وحسن الظن؛ فالأصل في المسلم السلامة، وأمّا التهمة فطارئة ولا تُقبل إلا بيقين.

أمّا البقاعي – رحمه الله - فيذكر التناسب العجيب في السورة؛ حيث يربط النور بالإيمان، فالإيمان نور يضيء للبصيرة فلا تنطلي عليها ظلمة الإفك والبهتان.

*(لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

إشراقة بلاغية: تكرار لَّوْلَا للتحضيض والتوبيخ مرة أخرى، لتحديد المعيار التشريعي والصارم في قضايا الأعراض.

(فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ): حصر وتأكيد بواسطة ضمير الفصل (هُم)، وكلمة (عِندَ اللَّهِ) تشير إلى القضاء والشرع الإلهي؛ أي حتى وإن زعموا الصدق في ظنهم، فهم في حكم الشريعة كاذبون ومفترون يستحقون حد القذف.

التشديد بطلب أرربعة شهداء جاء حمايةً لسياج الأسرة والمجتمع؛ كي لا يصبح العرض مادة سهلة لكل شائعة أو تصفية حسابات.

*(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

إشراقة بلاغية: (أَفَضْتُمْ فِيهِ): التعبير بـ "أفضتم" (من الإفاضة، وهي اندفاع الماء بكثرة) يصور حالة الاندفاع والاندلاق القولي وتداول الحديث دون تثبت أو تفكير.

(لَمَسَّكُمْ): إسناد المس للعذاب لإفادة مباشرة العذاب وحتمية وقوعه لولا التدارك بالرحمة الإلهية.

يحلل محمد قطب – رحمه الله - التلويح بالعذاب أنّه علاج نفسي للمجتمع؛ فالخوض في الشائعات الأخلاقية ليس مجرد خطأ لساني عابر، بل هو معصية كبرى تعرّض المجتمع ككل للهلاك، ولولا رحمة الله المتمثلة في التوبة والستر والتشريع الجديد لحدثت الكارثة.

*(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ).

إشراقة بلاغية بيانية: (تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ): تصوير بلاغي مذهل (صورة فنية)؛ الخبر ينتقل من لسان إلى لسان فوراً دون مروره على القلب أو العقل للتفكر والتدبر!

عَن عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها: كانَت تَقرَأُ: (إذ تَلِقونَه بألسِنَتِكُم)، وتَقولُ: الوَلْقُ: الكَذِبُ. قال ابنُ أبي مُلَيكةَ: وكانَت أعلَمَ مِن غيرِها بذلك؛ لأنَّه نَزَلَ فيها [1].

(وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم): التعبير بـ "بأفواهكم" تأكيد على أن الكلام مجرد ألسنة وأفواه، لا سند له من العلم والواقع ولا ثقل له في الحقيقة.

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ): طباق وضدية صارخة بين المقياس البشري المادي المستخف بالكلمة والمقياس الإلهي العدل.

يقف ابن القيم – رحمه الله - كثيراً عند خطر "حركات اللسان"، مشيراً إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللهِ، لا يُلقي لها بالًا، يَرفَعُه اللهُ بها دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن سَخَطِ اللهِ، لا يُلقي لها بالًا، يَهوي بها في جَهَنَّمَ [2].

*(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) .

إشراقة بلاغية: (مَّا يَكُونُ لَنَا): صيغة نفي الشأن والتعجب، وتعني: ليس من شأننا ولا ينبغي لنا بحال من الأحوال مجرد الخوض فيه.

(سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ): تقديم التنزيه لله (سُبْحَانَكَ) عند سماع الأمر المنكر الشديد؛ لأن البهتان والطعن في أهل النبي ﷺ طعن غير مباشر في حكمة الله ورسالته.

أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، عن بعض الأنصار أن امرأة أبي أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا : ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال: بلى. وذلك الكذب أكنت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله. قال: فعائشة والله خير منك وأطيب، إنما هذا كذب وإفك باطل . فلما نزل القرآن ذكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك ثم قال : لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين أي كما قال أبو أيوب وصاحبته[3].

---

1 - أخرجه البخاري (4414)، والطبراني (200) ((143 /23)) بلفظه، والطبري في (التفسير) (216 /17))وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (14234) بنحوه

2 - أخرجه البخاري (6478)، ومسلم (2988) مختصراً بنحوه.

3 - وأخرج الواقدي، والحاكم، وابن عساكر عن أفلح مولى أبي أيوب نحوه، انظر السيوطي: الدر المنثور (ص700).

يبيّن ابن عاشور – رحمه الله - أنّ التربية القرآنية لا تطلب فقط امتناع الإنسان عن القذف، بل تقتضي منه ردعه وإعلانه رفض الباطل فور سماعه قائلاً: "سبحانك هذا بهتان عظيم".

*(يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)، إشراقة بلاغية: (يَعِظُكُمُ): الموعظة هي الزجر المقرون بالترغيب والترهيب بأسلوب شفيق.

(إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ): شرط يثير الحمية الإيمانية ويستنفر الوجدان؛ فالإيمان الحقيقي يستلزم الامتناع الفوري والترفع الدائم عن هذه المسالك.

*(وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ): ختم الآية باسمي (العليم) بخبايا النفوس و(الحكيم) في التشريع والتربية.

*(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

إشراقة بيانيية بلاغية: (يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ): تعبير عن حركة النفس الداخلية والإرادة؛ فالعقاب لم يرتبط فقط بـ "إشاعة" الفاحشة بالفعل، بل بـ "محبة إشاعتها" والرغبة في انتشارها!، (الْفَاحِشَةُ): كل ما عظم قبحه، والمقصود هنا الزنا وأخباره.

(تَشِيعَ): من الشياع والنماء والانتشار، واستعيرت لتجسيد الفاحشة كأنها وباء يمتد في الجسد المجتمعي.

البعد النفسي والاجتماعي: يركز سيد قطب ومحمد قطب – رحها الله -: على البعد النفسي لهذه الآية؛ إن الذين يسعون لنشر الأخبار الجنسية والمقالات المريبة يريدون كسر حجز الهيبة والحياء في المجتمع المسلم؛ لأن كثرة الحديث عن الفاحشة تُسقط استقباحها في النفوس وتجرّئ العاصين.

أمّا ابن تيمية – رحمه الله - فيوضح أن صلاح القلوب يقترن ببغض الفواحش، وأن تحريك الشائعات هو سلاح المنافقين في كل عصر لتفكيك الجبهة الداخلية للمؤمنين.

*(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)، إشراقة بيانية بلاغية:

جواب "لولا" محذوف: التقدير: (لهلكتم، أو لعاجلكم بالعقوبة، أو لتاه المجتمع في الظلمات)، وحذف الجواب في البلاغة يفتح الباب لذهاب النفس كل مذهب في تصور حجم الهلاك المقدر لولا الرحمة.

(رَءُوفٌ رَّحِيمٌ): الجمع بين الصفات العاطفة لتسكين النفوس بعد القوارع والتوبيخ والوعيد، لتنتهي المجموعة بفتح باب التوبة والأمل والأمان الإلهي.

الخُلاصة: هكذا تأخذنا هذه العشرية من سورة النور في رحلة تربوية أسلوبية متكاملة:

بدأت بالفاجعة والتطمين: (الإفك لا تحسبوه شراً)، ثم عالجت طريقة الاستقبال الذهني والنفسي للشائعة: (حسن الظن - طلب البرهان - العفة اللسانية)، ثم وضعت قواعد المحاكمة والأحكام: (طلب الشهود والأصل البراءة)، ثمّ حذرت من أسباب انتشار الفساد الفكري والأخلاقي: (حب إشاعة الفاحشة).

وختمت بالتذكير بالرحمة الإلهية: ليظل الفرد المسلم بين جناحي الخوف والرجاء، محاطاً بسياج النور الإلهي.

*(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (22) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(26))

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس الثالث من سورة النور هيّ ذروة سنام علاج حادثة الإفك العظيمة، والتي حركت المجتمع المسلم في المدينَة المنوّرة وأعادت سباكة جبهته الداخلية على أصول التزكية، العفو، وبراءة البيت النبوي الشريف.

*﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

إشراقة بلاغية: النداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: استجاشة للإيمان في نفوسهم. كأنّ الحق يقول: إن كان في قلوبكم إيمانٌ يزجركم، فهذا موضع التذكر.

﴿خُطُوَاتِ﴾: جمع "خُطوَة" (بضم الخاء: ما بين القدمين). فيها ما يسميه البلاغيون: استعارة تمثيلية – وهي ما احتوت أكثر من تعبير تصويري – فهنا تشبه الشر بالمسير التدريجي. فالشيطان لا يأمر بالكبائر دفعة واحدة، بل باستدراج وتدرج (استماع لغمز، ثم إحسان ظن بالشائعة، ثمّ نقل لها ثمّ الخوض الكامل).

التذييل في قله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾: تعليل للنهي؛ فالشر أصل أصيل في طبعه. "الفحشاء" ما عظم قبحه من الأفعال، و"المنكر" ما تنكره العقول والشرائع.

يربط البقاعي – رحمه الله - بين تزكية النفوس وبين سلامة المجتمع، فيرى أنّ الخوض في الأعراض هو من أكبر خطوات الشيطان التي تهدم البناء الاجتماعي.

أمّا نظرة سيد قطب فيرى أنّ الآية ترسم للروح البشرية خط دفاعها الأول؛ لا تتساهل في "الخطوة الأولى"، لأنّ من يضع قدمه في أول الطريق لن يملك الوقوف في منتصفه.

الحقيقة الإيمانية ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عليكم ورحمته مَا زَكىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أبداً﴾: لولا توفيق الله وعصمته لتهدمت النفوس بالإثم. والتزكية هنا طهارة القلب واللسان من الخوض في أطهار المسلمين.

*﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

سبب النزول: قالت عائشة رضي الله عنها: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: (ولا يَأتَلِ أولو الفَضلِ مِنكُم والسَّعةِ) إلى آخِرِ الآيةِ -يَعني أبا بَكرٍ- (أن يُؤتوا أولي القُربى والمَساكينَ): يَعني مِسطَحًا، إلى قَولِه: (ألا تُحِبُّونَ أن يَغفِرَ اللهُ لَكُم واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ) حتَّى قال أبو بَكرٍ: بَلى واللهِ يا رَبَّنا، إنَّا لَنُحِبُّ أن تَغفِرَ لَنا، وعادَ له بما كان يَصنَعُ حين أقسم ألا ينفق على مسطح بن أثاثة (وهو قريبه ومن المهاجرين والفقراء) بعدما خاض في إفك عائشة رضي الله عنها [1].

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾: من الإيلاء، وهو الحلف واليمين (أي: لا يحلف) قراءة الجمهور. وقرأ أبو جعفر (ولا يتئل) بتاء مفتوحة بعد الياء، وهمزة مفعوحة بين التاء واللام، بمعنى "لا يتكلف الحلف واليمين.

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه: إنَّ رجلًا قال: واللهِ لا يغفرُ اللهُ لفلانٍ، و إنَّ اللهَ قال: من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفرَ لفلانٍ؟ فإني قد غفرتُ لفلانٍ، وأحبطتُ عملَك أو كما قال [2].

الوصف بـ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾: ثناءٌ إلهي عجيب على أبي بكر الصديق! رغم حزنه وغضبه لعرض ابنته، يصفه الله بـ "أولي الفضل" (فضل

1 - صحيح البخاري (4757) ومسلم (2770)
2 - أخرجه مسلم (2621)، وأبو يعلى (1529)، والروياني في ((مسنده)) (967) واللفظ لهم.

الدين والخلق) و"السعة" (سعة الرزق). فلم يسلب عنه صفة الفضل بسبب غضبه البشري.

إشراقة بلاغية أسلوبية: الاستفهام الإنكاري التشويقي: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

هنا ينقل القرآن القضية من معادلة: "(أنا) ضد (من أذاني)" إلى معادلة: "(أنا) والتعامل مع (الله)".

التدرج المقامي: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾. العفو ترك العقاب، والصفح أرقى منه وهو إزالة أثر الإساءة من النفس ومحوها بالكلية.

يقف ابن القيم – رحمه الله - عند هذه الآية ليعقد قاعدته الشهيرة: "الجزاء من جنس العمل". إن أردت أن يعفو الله عن عظائم ذنوبك، فاعفُ أنت عن زلات عباده في حقك.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً: اعْفُ عمَّنْ ظَلَمَكَ، وصِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وأحسنْ إلى مَنْ أساءَ إليكَ، وقُلْ الحقَّ ولَوْ على نفسِكَ [1].

يرى ابن عاشور – رحمه الله - أنّ في الآية إرشاداً أصولياً لإيثار مصلحة الجماعة؛ فالمحافظة على المهاجرين والمساكين وتماسك المجتمع أولى من التشفّي الغريزي للأنفس.

سرعة استجابة الصديق – رضي الله عنه -: لما سمع أبو بكر ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال فوراً: "بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي"، وأرجع النفقة لمسطح وأقسم ألا ينزعها منه أبداً [2].

*﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

﴿يَرْمُونَ﴾: فيها ما يسميه البلاغيون: استعارة؛ حيث أنّ رمي الكلمات الخبيثة أشد قسوة وألماً من الرمي بالسهام والحجارة.

ونجد الصفات الثلاث ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾: المحصنات: العفيفات اللاتي حَصّنّ أفرادهن بالتقوى، الغافلات: الطاهرات اللاتي لا يخطر ببالهن الفحش ولا يعرفن كيد الفساق (وهي أعلى درجات النقاء)، المؤمنات: اللاتي يستندن إلى جدار الإيمان الصلب.

---

1 - أخرجه ابن الأعرابي في ((معجمه)) (1507) باختلاف يسير، وابن النجار كما في ((كشف الخفاء)) للعجلوني (32/2) واللفظ له، وقال الالباني: صحيح لغيره.

2 - أخرجه البخاري (2661) ومسلم (2770).

إشراقة بلاغية: بناء الجملة واللعنة: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾. جاء الفعل مبنياً للمجهول (أو لما لم يُسمَّ فاعله) لدلالة أن اللعنة ملاحقة لهم من الله ومن الملائكة ومن المؤمنين في الكلمين: الدنيا والآخرة.

*﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، المشهد اليومي في القيامة: تتجرد الجوارح من سلطة الإنسان لتنطق بالحق.

التضاد البلاغي: اللسان الذي كان يرمي بالباطل في الدنيا، ينقلب في الآخرة ليصبح شاهد إدانة على صاحبه!

﴿يومئذ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾: "الدين" هنا بمعنى الجراء والحساب العدل المستحق بلا زيادة ولا نقصان.

وهنا اللفتة العقدية والأسلوبية: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾: في الدنيا كان أهل الإفك يشكون أو يلبسون الحق بالباطل، أما هناك فيتجلى الحق مطلقاً؛ زائلٌ كل زيغ أو تمويه.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

تتسع الآية لقاعدتين جليلتين: الأولى: الأقوال والكلام: الخبيثات من الكلم لا تليق إلا بالخبيثين من الناس، والطيبات من الكلم والثناء لا تليق إلا بالطيبين.

الثانية: الأشخاص والأنكحة: النفوس الخبيثة تتآلف مع الخبثاء، والنفوس الطيبة تناسب الطيبين.

ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - يستدلان بالآية على "السنّة الكونية والشرعية في المناسبة والمشاكلة"؛ فالأرواح أجناد مجندة، والله تعالى يربأ بنبيه الطيب المطهر أن تكون تحت عصمته إلا أنقى وأطيب النساء (عائشة رضي الله عنها).

﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾: أشار بـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ للإشارة إلى بعد منزلتهم وعلو شأنهم. والبراءة هنا براءة إلهية عامة وشاملة وخالدة بتلاوة القرآن إلى يوم القيامة.

الخاتمة الكريمة ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: تنكير "مغفرة" و"رزق" للتكثير والتثمين، و"الرزق الكريم" هو الجنة وما فيها من النعيم المقيم.

الخلاصة: هكذا جاءت هذه المجموعة الآيات منظومة أخلاقية وقانونية كاملة:

تحمِي المجتمع المسلم من إشاعة الفاحشة عبر إغلاق "خطوات الشيطان".

وتُعلّم المؤمن كيف يتجاوز ألامه الشخصية ويستعلي على حظوظ نفسه بـ "العفو والصفح".

وتُقرر أن حماية أعراض أطهار الأمة قضية ترتبط باللعنة الإلهية والحساب الخروي.

وتُنهي القضية بـ قانون المشاكلة والتطهير الذي يضع أم المؤمنين عائشة والبيت النبوي في المقام العالي الذي يليق بطهارتهم.

كما أنها درس عظيم للمؤمنين، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم ينتاب جنابه وبيته الطاهر من الإشكالات والتهم العويصة ما يحتاج أن يتنزل الوحي لحلها، للاقتداء به صلى الله عليه وسلم في صبره وتأنيه، ودقة تحريه.

وتُمثّل ألكلمات الثلاث (العفو، الصفح، المغفرة) درجات متصاعدة في سلم التسامح وتطهير القلوب في البيان القرآني، وهي ليست مجرد مترادفات، بل لكل كلمة منها حقيقة لغوية وإشارة بلاغية ومرتبة نفسية تختلف عن الأخرى.

فالعَفْوُ في أصل كلام العرب يدور حول المحو والشطب، أو الترك والزيادة. يُقال: "عَفَتِ الرِّيَاحُ الآثَارَ" أي محتها وأزالتها.

وفي المعلقات:

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا... بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُهَا

يصور توحش الأماكن وتغيرها بمرور الزمن [1].

الحقيقة المعنوية: هو ترك المؤاخذة ذنباً كان أو خطأً، وإسقاط العقاب المستحق على الجاني.

إشراقة بلاغية نفسية: العفو هو أول المراتب وأقلها، حيث يترك العافِي عقاب الجاني، لكن قد يبقى في نفسه أثرٌ أو عتبٌ على من أخطأ في حقه، وقد يذكره بالذنب دون أن يعاقبه.

في القرآن: جاء العفو غالباً مع التكاليف والحقوق التي يُسقط الله فيها العقوبة عن العباد، كقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 43].

الصفح (إزالة أثر الإساءة وطَي الصفحة)، أصل المادة اللغوية، أنّ الصَّفْحُ مشتق من صفحة الشيء (أي جانبه أو عرضه)، كـ "صفحة العنق" أو "صفحة الكتاب".

---

1 - مطلع معلقة لبيد بن ربيعة

أمّا الحقيقة المعنوية: يُقال "إعراضٌ بصفحة الوجه" أو "قلْبٌ لصفحة الكتاب". فالصفح هو أن تُعرض عن الذنب وتطوي صفحته كأنه لم يكن.

والملمح البلاغي والنفسي: أنّ الصفح أعلى وأرقى من العفو؛ لأنه عفوٌ وزيادة!

في الصفح، لا يكتفي الإنسان بإسقاط العقوبة (العفو)، بل يُسقط العتاب والإثارة تماماً، ويُعرض بوجهه عن الإساءة، فلا يُذكّر بها الجاني ولا يمنّ عليه.

في القرآن: جاء اقترانه بالعفو لترقية النفس البشرية في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: 109]، وقوله تعالى لأبي بكر الصديق هنا: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾؛ أي: لا تعاقبوهم، ولا تعاتبوهم أو تتغير قلوبكم عليهم.

أمّا المغفرة فهي (الستر والوقاية والصلح الكامل)، وأصل المادة اللغوية: المَغْفِرَةُ مشتقة من المِغْفَر (وهو الخوذة الحديدية التي يضعها المقاتل على رأسه لتقيه ضربات السهام والسلاسل).

والحقيقة المعنوية: المغفرة تجمع بين أمرين: الستر للذنب، والوقاية من شَرّه وآثاره.

والملمح البلاغي والنفسي: المغفرة غاية المراتب وتمام التسامح؛ لأن العفو يمحو العقوبة، والصفح يمحو العتاب، أما المغفرة فـ تَسْتُر الذنب وتجعله كأن لم يُعمل، وتحمي صاحبه من سوء عاقبته.

الفرق الخفي: العفو والصفح قد يكونان من المخلوق للمخلوق، أما المغفرة التامة الشاملة فهي خصيصة إلهية بالأساس، إذ لا يملك ستر الذنب ووقاية العبد من العذاب إلاّ الله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: 135].

*(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(27) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29) قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(31) وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ

يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (33) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(34) وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (33) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(34))

تُشَكِّلُ هَذِهِ الآيَاتُ الكَرِيمَةُ في هذا الدرس الرابع مِنْ سُورَةِ النُّورِ النَّوَاةَ الصَّلْبَةَ لِلْمَنظُومَةِ الأَخْلَاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الإِسْلَامِ. فَبَعْدَ أَنْ طَهَّرَتِ السُّورَةُ المَجْتَمَعَ فِي مَطْلَعِهَا مِنْ جَرِيمَةِ الزِّنَا وَحَدِّ القَذْفِ وَحَادِثَةِ الإِفْكِ، انْتَقَلَتْ إِلَى التَّدَابِيرِ الوِقَائِيَّةِ والسَّتْرِ العَامِّ، لِتَبْنِيَ حِصْنًا مَنِيعًا لِلْأُسْرَةِ وَالعِرْضِ عَبْرَ أَدَبِ الاسْتِئْذَانِ، وَغَضِّ البَصَرِ، وَتَنْظِيمِ الحِجَابِ، وَحَمَايَةِ الفِطْرَةِ، وَتَيْسِيرِ الزَّوَاجِ.

حُرْمَةُ البُيُوتِ وَأَدَبُ الاسْتِئْذَانِ: *﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿27﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُواۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿28﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿29﴾﴾.

لَمَّا شَدَّدَتِ السُّورَةُ فِي عُقُوبَةِ الزِّنَا وَالقَذْفِ، شَرَعَتْ هُنَا فِي إِغْلَاقِ الذَّرَائِعِ المُؤَدِّيَةِ إِلَيْهِمَا؛ فَالبُيُوتُ هِيَ المَلَاذُ الآمِنُ لِلْعَوْرَاتِ، وَاقْتِحَامُهَا بِلا اسْتِئْذَانٍ هَتْكٌ لِلْحُرُمَاتِ وَتَعْرِيضٌ لِلْبَصَرِ لِمَا لَا يَحِلُّ.

إشراقة بلاغية إرشادية: سِرُّ التَّعْبِيرِ بـ ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ بَدَلَ (تَسْتَأْذِنُوا): يَقِفُ ابْنُ عَاشُورٍ عِنْدَ هَذَا اللَّفْظِ البَدِيعِ؛ فَـ "الاسْتِيْنَاسُ" مِنَ الأُنْسِ ضِدَّ الوَحْشَةِ. أَيْ: حَتَّى تَسْتَعْلِمُوا وَتَطْمَئِنُّوا إِلَى أَنَّ أَهْلَ البَيْتِ قَدْ أَنِسُوا بِحُضُورِكُمْ وَلَمْ يَتَوَحَّشُوا أَوْ يَنْزَعِجُوا. فَجَعَلَ الغَايَةَ لَيْسَ مجَرَّدَ الإِذْنِ اللَّفْظِيِّ، بَلْ حُصُولَ الأُنْسِ وَالرَّاحَةِ النَّفْسِيَّةِ لِلْمَزُورِ.

تَقْدِيمُ الاسْتِيْنَاسِ عَلَى السَّلَامِ: ﴿تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾: الاسْتِيْنَاسُ يُعَبِّرُ عَنْ طَلَبِ الإِذْنِ وَتَفَقُّدِ الحَالِ (كَالتَّحْنِيحِ أَوْ قَرْعِ البَابِ أَوْ إِعْلَامِ صَاحِبِ الدَّارِ)، فَإِذَا أَنِسَ الرَّجُلُ أُتبِعَ بِالتَّسْلِيمِ عِنْدَ الدُّخُولِ.

الأَمْرُ بالرُّجُوعِ وَالتَّعْلِيلُ بـ ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾: إِزَالَةٌ لِلْحَرَجِ الجَاهِلِيّ؛ فَالرُّجُوعُ دُونَ حَسَرَةٍ أَوْ غَضَبٍ هُوَ "أَزْكَى" (أَيْ أَنْمَى لِلْقُلُوبِ وَأَطْهَرُ لِلْنُفُوسِ) مِنَ الدُّخُولِ عَلَى كَرَاهِيَةٍ.

الاسْتِثْنَاءُ المَقَاصِدِيُّ فِي قوله سبحانه: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾: كَالْخَانَاتِ، وَالمَحَالِّ، وَالأَمَاكِنِ العَامَّةِ؛ إِذْ تَنْتَفِي العِلَّةُ (عَوْرَةُ السُّكْنَى)، مَعَ التَّذْيِيلِ بالتَّحْذِيرِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

حِصْنُ غَضِّ البَصَرِ لِلرِّجَالِ: *﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

سِلْسِلَةُ الوِقَايَةِ الأَخْلَاقِيَّةِ فِي الآيَةِ:

غَضُّ البَصَرِ (المَبْدَأ)	(النتيجة) حفظ الفرج
﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾	﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾
(استعمال "مِن" للتبعيض)	(إطلاق الحفظ بدون تبعيض)

التحليل اللغوي والبلاغي: دَلَالَةُ التَّبْعِيضِ فِي (مِنْ): سِرُّ التَّبْعِيضِ: النَّظَرُ لَا يُمْكِنُ إِغْلَاقُهُ بِالكُلِّيَّةِ؛ إِذْ يَقَعُ نَظَرُ الفَجْأَةِ، وَيَحْتَاجُ المَرْءُ للنَّظَرِ فِي الطَّرِيقِ وَالمُعَامَلَاتِ، فَجَاءَتْ (مِنْ) لِلْتَبْعِيضِ (أَيْ غَضَّ النَّظَرِ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ). أَمَّا الفَرْجُ فَالْوَاجِبُ حِفْظُهُ بِالكُلِّيَّةِ فِي كُلِّ حَالٍ إِلَّا مَا اسْتُثْنِيَ بالزَّوَاجِ.

اما تَقْدِيمُ غَضِّ البَصَرِ عَلَى حِفْظِ الفَرْجِ، فـيَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ – رحمه الله - فِي (جَوَابِ الكَافِي): "جَعَلَ اللهُ البَصَرَ رَائِدًا لِلْقَلْبِ؛ فَالنَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ، وَمَنْ أَرْسَلَ طَرْفَهُ أَتْعَبَ قَلْبَهُ. فَقَدَّمَ السَّبَبَ (البَصَرَ) عَلَى المَسَبَّبِ (الفَرْجَ)؛ لِأَنَّ النَّظَرَ جَاسُوسُ القَلْبِ وَبَرِيدُ الزِّنَا".

الفَاصِلَةُ القُرْآنِيَّةُ (خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ): اخْتَارَ "يَصْنَعُونَ" دُونَ "يَفْعَلُونَ"؛ لِأَنَّ "الصُّنْعَ" عَمَلٌ فِيهِ دِقَّةٌ وَتَكَلُّفٌ وَتَصَنُّعٌ، مِمَّا يُشِيرُ إِلَى حَرَكَاتِ العَيْنِ وَالاسْتِرَاقِ الخَفِيِّ لِلْنَّظَرِ الذِي لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ.

مِيثَاقُ العِفَّةِ وَالسَّتْرِ لِلْمُؤْمِنَاتِ: *﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

التَّحْلِيلُ البَيَانِيُّ وَالمُعْجَمِيُّ:

اللَّفْظَة	التَّرْكِيب المَدْلُولُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ	المَلْمَحُ التَّفْسِيرِيُّ وَالتَّرْبَوِيُّ

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾	اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الإِبْدَاءِ؛ المَقْصُودُ بِهِ مَا يَظْهَرُ بِلَا قَصْدٍ. (كالثَّوْبِ الظَّاهِرِ أَوْ مَا بَدَا بِحُكْمِ الحَرَكَةِ كَالوَجْهِ وَالكَفَّيْنِ عِنْدَ تغطيتها)	عَدَمُ تَكْلِيفِ المَرْأَةِ بِمَا فِيهِ مَشَقَّةٌ خَارِجَةٌ عَنْ وُسْعِهَا
﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾	الخِمَارُ: غِطَاءُ الرَّأْسِ. الجُيُوبُ: جَمْعُ جَيْبٍ وَهُوَ شَقُّ الصَّدْرِ. والضَّرْبُ يَقْتَضِي الإِلْصَاقَ وَالإِحْكَامَ	كَانَتِ المَرْأَةُ فِي الجَاهِلِيَّةِ تُلْقِي الخِمَارَ إِلَى وَرَائِهَا فَيَبْدُو صَدْرُهَا وَعُنُقُهَا، فَأُمِرْنَ بِسَدِّ هَذِهِ الثَّغْرَةِ
تَكْرَارُ ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾	تَكْرَارٌ لِغَرَضِ التَّفْصِيلِ؛ لِبَيَانِ الدَّوَائِرِ المُسْتَثْنَاةِ مِنَ المَحَارِمِ	تَقْسِيمُ المَحَارِمِ حَسَبَ الدَّرَجَةِ وَالفِطْرَةِ لِتَيْسِيرِ الحَيَاةِ المَنْزِلِيَّةِ
﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ليعلم ما يخفين من زينتهنّ﴾	نَهْيٌ عَنِ الحَرَكَةِ الصَّوْتِيَّةِ الخَفِيَّةِ (كَصَوْتِ الخَلْخَالِ أَوْ المِشْيَةِ المَلْفِتَةِ)	العِفَّةُ لَيْسَتْ ثَوْبًا فَقَطْ، بَلْ سُلُوكٌ وَصَوْتٌ وَحَرَكَةٌ

اللَّمَحَاتُ الإِيمَانِيَّةُ وَالظِّلَالُ للشَّخْصِيَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ المُمَيَّزَةُ: يُؤَكِّدُ سَيِّد قُطْب – رحمه الله - أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ تُقِيمُ سِيَاجًا نَفْسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا يَحْمِي المَرْأَةَ مِنْ أَنْ تَكُونَ أَدَاةَ إِثَارَةٍ أَوْ سِلْعَةً بَصَرِيَّةً، وَتَرْفَعُهَا لِتَكُونَ إِنْسَانًا يُقَاسُ بِالعَقْلِ وَالتَّقْوَى.

الخِتَامُ الشَّامِلُ ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾: نَادَى الجَمِيعَ (رِجَالًا وَنِسَاءً) بِـ ﴿أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لِأَنَّ التَّقْصِيرَ فِي غَضِّ البَصَرِ أَوْ السَّتْرِ يَقَعُ فِيهِ المَرْءُ طَبْعًا، فَبَابُ التَّوْبَةِ هُوَ المَخْرَجُ وَالسَّبِيلُ لِلْفَلَاحِ.

الحَلُّ الإِيجَابِيُّ (التَّزْوِيجُ وَالاسْتِعْفَافُ وَالكِتَابَةُ): *﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿32﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿33﴾﴾

التَّحْلِيلُ البَلَاغِيُّ وَالسِّيَاقِيُّ: أمّا الأَمْرُ فِلْلْمُجْتَمَعِ ﴿وَأَنكِحُوا﴾: حيث وَجَّهَ الأَمْرَ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالمُجْتَمَعِ (أَنْكِحُوا)، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ تَيْسِيرَ الزَّوَاجِ مَسْؤُولِيَّةٌ جَمَاعِيَّةٌ لِتَحْصِينِ الشَّبَابِ.

(الأَيَامَى): جَمْعُ أَيِّمٍ، وَهُوَ مَنْ لَا زَوْجَ لَهُ (رَجُلًا كَانَ أَوْ امْرَأَةً، بِكْرًا أَوْ ثَيِّبًا).

ونجد الوَعْدُ الإِلَهِيُّ بِالغِنَى ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ﴾:

يَعْلِقُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَابْنُ كَثِيرٍ – رحمهما الله -: هَذَا وَعْدٌ صادِقٌ؛ فَالزَّوَاجُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرِّزْقِ لا الـمَغْرَمِ، لِأَنَّ العَفِيفَ يُعِينُهُ اللهُ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثةٌ حقٌّ على اللَّهِ عونُهُم: المُجاهدُ في سبيلِ اللَّهِ، والمُكاتِبُ الَّذي يريدُ الأداءَ، والنَّاكحُ الَّذي يريدُ العفافَ [1].

الأَمْرُ بالاسْتِعْفَافِ عِنْدَ العَجْزِ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾: السِّينُ وَالتَّاءُ لِلْطَلَبِ وَالمُبَالَغَةِ؛ أَيْ لِيَجْتَهِدُوا فِي قَهْرِ الشَّهْوَةِ وَالتَّعَفُّفِ بالصَّوْمِ وَالعِبَادَةِ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ بَابَ الرِّزْقِ.

التَّحْرِيرُ الأَخْلَاقِيُّ وَالمَالِيُّ ﴿فَكَاتِبُوهُمْ ... وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ﴾: أَمَرَ بِمُكَاتَبَةِ العَبِيدِ (عَقْدُ الحُرِّيَّةِ مقابلَ مالٍ)، بَلْ وَأَمَرَ بِمُسَاعَدَتِهِمْ مَالِيًّا مِمَّا آتَى اللهُ، تقدمت فيه حضارة الإسلام على حضارة الغرب المزعومة بقرون.

إِبْطَالُ البِغَاءِ الجَاهِلِيِّ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾: كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ (كَعَبْدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلُولَ) يُكْرِهُونَ إِمَاءَهُمْ عَلَى الزِّنَا لِكَسْبِ المَالِ، فَجَاءَ القُرْآنُ لِيَهْدِمَ هَذَا الاسْتِغْلَالَ وَيَرْفَعَ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ.

التَّعْقِيبُ الكُلِّيُّ وَالتَّمْهِيدُ لِنُورِ اللهِ: *﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

إشراقة بَلَاغِيةُ وَالرَّبْطُ السُّورِيُّ: التَّأْكِيدُ بـ (القَسَمِ المَقْدّرِ): ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا﴾: رَدٌّ عَلَى كُلِّ مَنْ يَسْتَثْقِلُ هَذِهِ التَّشْرِيعَاتِ أَوْ يَرَى فِي أَدَبِ الاستِئْذَانِ وَالحِجَابِ قَيْدًا.

الثُّلَاثِيَّةُ التَّرْبَوِيَّةُ: (آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ): أَحْكَامٌ وَاضِحَةٌ لَا لَبْسَ فِيهَا. (وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا): عِبَرٌ مِنْ أُمَمٍ سَابِقَةٍ زَلَّتْ فِي الفَوَاحِشِ فَهَلَكَتْ. (وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ): تَمْسَسُ القُلُوبَ الحَيَّةَ فَتَدْفَعُهَا لِلْعَمَلِ.

الرَّبْطُ بِمَا بَعْدَهَا: هَذِهِ الآيَةُ هِيَ الجِسْرُ البَلَاغِيُّ الذِي يَرْبُطُ بَيْن "أَحْكَامِ العِفَّةِ وَالسَّتْرِ" وَبَيْنَ "آيَةِ النُّورِ" العَظِيمَةِ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ إِذْ لَا يَسْتَنِيرُ القَلْبُ بِنُورِ اللهِ إِلَّا إِذَا تَطَهَّرَ الجَسَدُ وَالمَجْتَمَعُ بِنُورِ هَذِهِ التَّشْرِيعَاتِ.

هكذا جاءت صِيَانَةُ البيوت وَأَدَبُ الاسْتِئْذَانِ بالتَّعْبِيرُ بـ (تَسْتَأْنِسُوا) بَدَلَ لاحترامُ خصوصيةِ المأوى وتطهيرُ العلاقات.

ثم جاء حِصْنُ غَضِّ البَصَرِ لِلرِّجَالِ بصِيغَةُ التَّبْعِيضِ (مِنْ أَبْصَارِهِمْ) والتعبير بـ (يَصْنَعُونَ) لأنّ البَصَرُ بَرِيدُ القَلْبِ، والتَّقْوَى سِيَاجٌ بَاطِنِيٌّ

---

1 - أخرجه الترمذي (1655) واللفظ له، والنسائي (3218)، وابن ماجه (2518)، وأحمد (7410) باختلاف يسير.

ثمّ مِيثَاقُ سَتْرِ المَرْأَةِ وَتَحْدِيدُ المَحَارِمِ والكِنَايَةُ فِي (يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ) وَالتَّأْكِيدُ بالحَرَكَةِ لكَرَامَةُ المَرْأَةِ فِي العِفَّةِ وَالسَّتْرِ لَا الاسْتِعْرَاضِ

ثم جاء التَّيْسِيرُ العَمَلِيُّ بالزَّوَاجِ وَالاسْتِعْفَافِ، والأَمْرُ المَوَجَّهُ لِلْمُجْتَمَعِ (وَأَنْكِحُوا) وَمُبَالَغَةُ (يَسْتَعْفِفْ) فالرَّدُّ العَمَلِيُّ عَلَى الفَاحِشَةِ هُوَ بَنَاءُ الأُسْرَةِ

ثم جاءت خَاتِمَةُ التَّأْصِيلِ وَالتَّمْهِيدِ لِلْنُورِ العَطْفُ الثُّلَاثِيُّ (آيَاتٍ، مَثَلًا، مَوْعِظَةً)، إذ لا يَسْتَقِرُّ النُّورُ الإلَهِيُّ إلا فِي مُجْتَمَعٍ طَاهِرٍ.

*﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ(36) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (40) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ(43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(45))

تُعدّ هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس الخامس من سورة النور نور المقاطع القُرآنية تصويرًا وبلاغةً وتماسكًا سياقيًّا؛ إذ تبدأ بمشكاة النور الإلهي الساطع في القلوب، وتتدرّج عبر مظاهر النور والظلمة في الآفاق والنفوس، لِتستقرّ عند مظاهر القدرة الإلهية الشاملة في الكون والحياة.

*﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

البعد الأسلوبي والبياني: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ): إسناد النور إلى الله يسميه البلاغيون: استعارة أو إطلاق للمسبب على السبب، فهو هادي أهل السماوات والأرض ومُنورهما بالنورين: الحسّي (الشمس والقمر) والمعنوي (الوحي والشرائع).

التصوير البلاغي الخماسي (المشكاة – المصباح – الزجاجة – الشجرة – الزيت):

ينتقل النظم القُرآني في رسم الصورة المركّبة من الوعاء الخارجي إلى جوهر الإشراق:

المشكاة: التجويف غير النافذ في الجدار، وهو يَجمع النور وينعكس عليه، والزجاجة: الصفاء التام، تمنع الريح وتحفظ النور وتزيده توهجًا، وأمّا الكوكب الدري: التشبيه بالدّر يُضفي صفة النقاء والتألق الشديد.

الشجرة المباركة (الزيتون): زيتونة لا شرقية ولا غربية (في وسَط الأكوان تُصيبها الشمس من شروقها إلى غروبها)، فزيتها في غاية الصفاء واللطافة.

(يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ): المبالغة في شدة الصفاء والاستعداد للإشراق.

يرى ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله- (نقلاً عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه) أن هذا مثلُ نور الله في قلب المؤمن (نور الفطرة ونور الوحي):

المشكاة: هي صدر المؤمن، والزجاجة: هي قلبه الشفاف الناقي، والمصباح: هو الإيمان والعلم الوارد من الله، والشجرة المباركة: هي الوحي الإلهي.

(نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ): التقاء نور الفطرة السليمة بنور الوحي والتنزيل؛ فالفطرة تكاد تدرك الحق بصفائها حتى قبل أن يأتِيَها الشرع، فإذا جاءها الوحي أضاءت واشتعلت.

النور في واقع الحياة والأرض: *﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾

المناسبة والسياق: بعد أن عرّفنا الحقّ عزّ وجلّ بمقرّ نوره في العالم العلوي والقلبي، بيّن أين يُلتمس هذا النور في عالم الأرض؟ إنه في المساجد، وفي قلوب الرجال الذين يعمرونها.

(أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ): الإذن هنا أذَن قَدَر وتكليف، و"الرّفع" يشمل الرفع الحسي (البناء والتشييد) والمعنوي (التطهير، والتنزيه، وإقامة الشعائر).

اللمحة الأسلوبية في صفات الرجال: (رِجَالٌ): تنكير للتعظيم. المرجلة هنا ليست مجرد ذكورة بيولوجية، بل ثبات إيماني وإرادة.

فرجل كلمة مدح وثناء كما في قوله تعالى: وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)[القصص:20]، وقوله سبحانه: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) [يس:20]، لاحظ أن الآيتين تحملان نفس الرقم، أي نفس الوقع من فواصل السورتين.

(لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ): ذكر "التجارة" (التي هي العقد العام أو الجلب) ثم عطف "البيع" (الذي هو الممارسة اليومية الفردية) لِيُفيد استغراق كل صور الشواغل المالية.

(تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ): صورة حركية ترسم رعب يوم القيامة بين الاضطراب والزيغ، مقابلةً بجهد هؤلاء الرجال وثباتهم في الدنيا.

*﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

إشراقة بلاغية: ظلمات الكفر: مشهدان مقابلان للنور: *﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾

يقدم القرآن ثنائية تقابلية معجزة بين "أهل النور" و"أهل الظلمة"، حيث يقسّم أعمال الكفار إلى نوعين:

المشهد الأول: السراب (أعمال الخيّرين من الكفار أو أهل الشبهات): (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً): السراب هو الوهم الضوئي في الصحراء المستوية (القيعة).

والبُعد النفسي هنا أنّ الكافر يظنّ أنّ أعماله السطحية ستنفعه، فإذا جاء يوم الحساب وفُشلت آماله، لم يجد شيئًا من عمله، ووجد اللهَ بالمرصاد لِيوفّيَه حسابه.

المشهد الثاني: البحر اللجي (أهل الجهالة المركبة والضلال): (أو كظلمات فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ):

إعجاز وصفي وبلاغي: طبقات متراكمة من الظلمات (ظلمة البحر العميق العميق، ظلمة الموج السفلي، ظلمة الموج العلوي، ظلمة السحاب).

(إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا): تعبير أسلوبي بالغ في شدة ضعف الرؤية، فاليد هي أقرب ما يستحضره الإنسان للتأمل، يكاد يعجز عن رؤيتها فغيرها أبعد.

قارن ذلك بقوله تعالى: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) [الحجر:14-15]، فإن أمكن الرؤية بصعوبة شديدة في ظلمات البحر، فإن ظلمات الجو يستحيل معها الرؤية، والله أعلم.

ختام الآية الجازم: (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) ـــ النور منحة من الله سبحانه وتوفيق، فمن أُغلق دون قلبه منفذ الوحي عاش في ظلمات متراكمة.

تسبيح الوجود والآفاق: *﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ...﴾

القراءة الأسلوبية والسياقية: يتسع مجرى النص من "نور القلوب" إلى "نور الكون والتسبيح الشامل".

(وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ): خصّ الطيور بالذكر في حال كونها باسطة أجنحتها في الجو لأنها أظهر في مناسقة هذا الكون البديع وتحريك المشاعر نحو الخالق.

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ): الكائنات جميعها تناغم نغمًا واحدًا في محاريب الوجود، كل مخلوق يعرف لغته وطريقته التي عبّده الله بها، قال مجاهد: الصلاة لبني آدم، والتسبيح لسائر الخلق، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

*﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾: بعد أن استَطردَ السِّياقُ إلى تَسبيحِ المَخلوقاتِ ﴿الطَّيرِ والصَّافَّاتِ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، هنا يأتي الرَّبط: لـمَّا كانتْ أعمالُ الكُفَّارِ بَاطِلةً ضَائعةً، وكانَ المُؤمِنونَ مُهتدينَ بِنورِ الله، وكانتِ الكائناتُ كُلُّها مُسبِّحةً خَاشعةً؛ جَاءتْ هذه الآيةُ كالتَّعليلِ والبرهانِ لِذلكَ كُلِّهِ؛ فَكأنَّ قائلًا يَسألُ: لِماذا يَؤولُ الأمرُ إلى صَيرورةِ الكُلِّ خَاضعًا؟ فيأتي الجَوابُ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

إنَّهُ تَقريرٌ لِلحقيقةِ الكُبرى بَعدَ استعراضِ جُنودِ المَملكةِ ومَصائِرِ أهلِها، أمّا علاقتها بما بعدها: يَرى ابن عاشور – رحمه الله - أنَّهُ لـمَّا قَرَّرَ مِلْكيَّتَهُ العَامَّةَ والمُطلَقةَ لِلكونِ خَلْقًا وتَصَرُّفًا، انتَقلَ لِلتَّدليلِ المَحسوسِ على هذا المُلْكِ بِأعظمِ مَظاهرِ التَّدبيرِ العُلويِّ والسُّفليِّ (السَّحاب، المَطر، البَرَد، تَقليب اللَّيل والنَّهار). فالآيةُ بِمثابةِ "القاعِدةِ الكُليّةِ" التي تَفرَّعَتْ عَنها الشَّواهدُ المَرئيّةُ بَعدَها.

يَرى الشَّيخانِ ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - أنَّ المُلْكَ في الآيةِ لَيسَ مُجرَّدَ الحِيازةِ، بَلْ هو مُلْكُ التَّدبيرِ والتَّأثيرِ والهدايةِ والاتِّصافِ بِصفاتِ الجَلالِ. كما أنّ وَصْفُ المَصيرِ بِأنَّهُ ﴿إِلَى اللهِ﴾ يَعني تَمامَ التَّوحيدِ (تَوحيد الرُّبوبيّةِ والإلهيّةِ والمَعادِ). فَمِنهُ بَدأَ الخَلْقُ (المُلْكُ) وإليهِ يَعودُ الأمْرُ (المَصيرُ)، وهذا يَقْتضي عَدَمَ الالتفاتِ لِغَيرِهِ؛ لِأنَّ مَنْ لا مِلْكَ لَهُ ولا مَصيرَ إليهِ لا يَستحقُّ أنْ يُعبَد.

ويَقولُ صاحبُ (في ظِّلالِ القرآن) ما مَفادُهُ: إنَّ هذه الآيةَ تَنقلُ الضَّميرَ البَشريَّ لِيَستشعرَ مَدى صِغَرِهِ في هذا الكَونِ المَملوكِ لله. الكُلُّ يَمضي إلى المَصِيرِ الواحدِ، فلا مَفَرَّ ولا مَلجأَ من الله إلَّا إليهِ.

ويُضيفُ محمد قطب في مَعرِضِ حَديثِهِ عن واقِعِ العَقيدةِ: إنَّ رَبْطَ المُلْكِ بالمَصِيرِ يَغرسُ في النَّفسِ الطُّمأنينةَ والتَّسليمَ؛ فَما دَامَ المُلْكُ لَهُ، ومَصِيرُ كُلِّ الطُّغاةِ والمُستضعَفينَ إليهِ، فَعَلامَ الخَوفُ وعَلامَ الحَزَن؟

إشراقة بلاغية بيانية أسلوبية: القصر والاختصاص (تَقديمُ ما حقُّهُ التَّأخير):لَمْ يَقُلْ "ومُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأرضِ لله"، بَلْ قالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ...﴾. تَقديمُ الجَارِّ والمَجرورِ يُفيدُ القَصْرَ والحَصْرَ، أيْ: لَهُ وَحْدَهُ لا لِغَيرِهِ.

وكذلكَ في الخَاتِمةِ: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾؛ لِتأكيدِ أنَّهُ لا مَصِيرَ لِأيِّ مَخلوقٍ إلى غَيرِ خَالِقِهِ، وفيهِ رَدٌّ بَليغٌ على الدَّهريّينَ والمُشركين.

كما نجد المُقابَطةُ والمُوازَنةُ البَديعيّة: ثَمَّةَ تَقابُلٌ لَطيفٌ بَينَ صَدرِ الآيةِ وعَجُزِها:﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: تُمثِّلُ البِدايةَ والنَّشأةَ والاستمرارَ في الحَياةِ الدُّنيا والتَّحكُّمَ في الأكوان، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾: تُمثِّلُ النِّهايةَ والمَعادَ والرُّجوعَ لِلحِسابِ. جَمَعَتِ الآيةُ بَينَ "المَبدأِ" و"المُنتهى" في أوجَزِ لَفْظٍ وأبْيَنِ عِبارة.

مشهد السحاب والقدرة الإلهية: *﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا...﴾

إشراقة بلاغة الحركة والتدرج الزمني: تستعرض الآية أطوار تكون المطر والبرد بأسلوب راسم للحركة:

(يُزْجِي سَحَابًا): سوق لطيف خفيف، (ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ): تجميع للقطع والمتفرقات، (ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا): تراكم طبقات بعضها فوق بعض.

(فَتَرَى الْوَدْقَ) [المطر] (يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ)، (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ): تشبيه استعاري أو حقيقي لِكتل السحاب الركامي الشاهق كالجبائل المحملة بالبرد. وفي سورة الرعد قال سبحانه: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) [الرعد:12].

ومعناها أن الله سبحانه وتعالى يخلق ويبدع السحب المليئة والمثقلة بمياه الأمطار الغزيرة التي فيها خير ونفع للعباد والبلاد، وهي رغم ثقلها، ورغم مشابهتها الجبال في الثقل أو في الشكل إلاّ أنها تسبح في السماء حتى يأذن الله لها بالمطر، وسقي من يشاء وما يشاء.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾: عودة إلى عنصر "النور والبريق" المتناسب مع جو سورة النور.

تقليب الزمان وتنوع الخلق: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ...﴾

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ: حركة الزمان المتناسقة بين الضياء والظلام تُذكّر الإنسان بالنور والظلمة الهدايتين.

يستدل العلماء بهذه الآية وآية سورة الحشر (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) [الحشر:2] على حجية القياس

التحليل اللساني والاشتقاقي (جذر "ع ب ر") الانتقال والعبور: الحقيقة اللغوية ل مادة (ع ب ر) تدل على الانتقال من شاطئ إلى شاطئ، أو من ضفة إلى أخرى. ومنه سُمي "عابر السبيل" ومجازًا "عَبْرَة العين" لأنها تتحرك من الداخل إلى الخارج.

كذا العبور العقلي: العِبرة والاعتبار في لسان العرب يعنيان: انتقال العقل من معرفة الشيء المشهود (المحسوس) إلى معرفة الشيء الغائب (المعقول).

ربط اللسان بالقياس: القياس في أصول الفقه هو "إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة". هذا الإلحاق هو عينُه "العبور" والتحرك الذهني من حكم حالة معلومة إلى حالة أخرى مشابهة لها.

وقد تضافرت عقول المفسرين والأصوليين في جلب هاتين الآيتين لتأسيس شرعية القياس: فابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - يريان أن "الاعتبار" هو إلحاق النظير بالنظير. فالله يُخبر في سورة "الحشر" عن عقوبته للمكذبين من أهل الكتاب، ثم يقول (فَاعْتَبِرُوا). والمعنى: قيسوا أنفسكم بهم، فإذا فعلتم مثل فعلهم، حَلّ بكم مثل عقابهم. ويؤكد ابن القيم في إعلام الموقعين أن الأمثال القرآنية كلها أقيسة عقلية تستدعي طرد العلة وتعميم الحكم على النظائر.

أمّا الإمام البغوي – رحمه الله - فيربط بين الرؤية البصرية والرؤية القلبية. فالأبصار في الآية ليست حدقة العين فحسب، بل هي "البصيرة"، والاعتبار عنده هو اتعاظ العقلاء وتشبيه حال بحال لئلا يصيبهم ما أصاب الأولين، والشريعة لا تفرق بين متماثلين.

كما يُعنى البقاعي – رحمه الله - بربط "تقليب الليل والنهار" بالقياس الوجودي؛ فالتقليب يقتضي التغير من حال إلى حال (ظلمة ونور، شدة ورخاء). والناظر البصير يقيس تقلبات الوجود ليقينه بأن وراءها مدبرًا واحدًا، فيقيس الغائب على الشاهد.

أمّا ابن عاشور – رحمه الله – فيجد أنّ صيغة الأمر (فَاعْتَبِرُوا) (صيغة افتعال تقتضي الكلفة والجهد العقلي). ويرى أن الآية تؤصل لقاعدة "النظر القياسي"؛ لأن الاعتبار تصرف في العقل بالقياس والمماثلة، وهو نص في مشروعية القياس الأصولي لأن العبرة لا تكون إلا بعد إلحاق الشيء بأشباهه.

وكذا سيد قطب – رحمه الله – (في ظلال القرآن) يتجاوز الترف العقلي الجاف ليدخل في "المشهد الحركي". فتقليب الليل والنهار ليس مجرد فكرة، بل هو كائن حي يتحرك. والاعتبار هنا هو انفتاح البصيرة لاستقراء السنن الإلهية الجارية التي لا تتبدل، فالقياس هنا قياسٌ سنني حركي (مَن يزرع الشوك يجني الجراح).

في فقه "التربية الإسلامية"، يرى محمد قطب أن النفس الإنسانية تحتاج إلى "المقايسة الوجدانية". فالأمر بالاعتبار هو إيقاظ للحس البشري ليرى العاقل مصارع الغابرين، فيقيس مصيره بمصيرهم إن سلك دربهم، وهو قياس تربوي يمنع الإنسان من الغرور.

الخلاصة القياسية: العلماء لم يمحضوا هاتين الآيتين للفقه الجزئي (كقياس الأرز على البر في الربا) فحسب، بل جعلوهما دستورًا كليًا للنظر. فالقرآن الكريم يعلّمنا أن الوجود مبني على "الأشباه والنظائر"، وأن حكم الله في الشيء هو حكمه في نظيره وشبيهه؛ لأن الشريعة والكون صدرا من مشكاة حكيم عدل لا يفرّق بين متماثلين، ولا يجمع بين متفرقين.

﴿والله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾: الوحدة في الأصل (الماء)، مقابل التنوع الشديد في الأشكال والحركات: ﴿فمنهم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ (كالحيات والشواهين)، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطيور، ﴿ومنهم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام والوحوش.

ثم يأتي الختام: ﴿يخلق الله ما يشاء إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ـــ تعليل لكل التنوع والمظاهر السابقة؛ فالذي أبدع النور، وصرف الظلمات، وأنزل الودق، وخلق الأحياء، قادر على هداية القلوب وإنارتها.

النظرة الكلية والخلاصة السياقية: تتلاحم الآيات لتبين أن "النور" ليس مجرد حقيقة فيزياوية، بل هو سرّ الوجود ومصدر الهداية:

يبدأ * بالنور الذاتي والقلبي* (المصباح في الزجاجة)، ثم يتجسد في السلوك والعبادة (في بيوت أذن الله أن تُرفع).

ويُقابَل بـ الظلمات المطبقة التي تعزل الإنسان عن الحقيقة (السراب والبحر اللجي).

ينعكس في الكون الواسع عبر تسبيح الكائنات، والبرق، وتقليب الليل والنهار، وبديع الخلق.

*(لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (46) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (48) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52) ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(53) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ(57))

هذه المقطع الكريم في هذا الدرس من سورة النور إنما هو انعطافة سياقية حاسمة في السورة؛ فبعد أن أضاءت السورة بالإشارة إلى "نور الله" وأحكام العفاف والبيوت، تتنزل هذه الآيات لِتَكْشِفَ "محكّ الانقياد" ومعدن الإيمان الحقيقي مقابل النفاق، وصولاً إلى التمكين والاستخلاف.

التقديم السياقي والمفتاحي: *﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

تقع الآية موقع "الجسر"؛ فبعد عرض الآيات الكونية والتشريعية السابقة، يُذكّر القرآن بأن التبيين قد تم واكتمل، ولكن التوفيق للعمل به بيد الله.

افتتاح بالقسم المضمر والتأكيد: ﴿لَّقَدْ﴾ لتثبيت الحقيقة، أمّ قوله سبحانه: ﴿مُّبَيِّنَاتٍ﴾: اسم فاعل (من أبَانَ) يجمع بين أمرين: فالآيات هي ظاهرةٌ بنفسها (بيّنة)، ومُبَيّنةٌ لغيرها من أحكام الحق ومناهج الحياة.

الجهد التفسيري والتدبري: الهداية هنا هداية توفيق وإلهام؛ فالآيات أُنزلت للجميع، لكن لا ينتفع بها إلاّ من فتح قلبه. يلاحظ ابن تيمية – رحمه الله - أنّ العلم بالحق شيء (البيان)، والانقياد له شيء آخر (الهداية).

ويعلق سيد قطب – رحمه الله - بأن الطريق واضح ومستقيم، بيد أنّ النفوس تختلف في التلقي والقبول.

ثم يأتي تشخيص مرض النفاق والانفصام الشكلي: *﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

إشراقة بلاغية وأسلوبية: الفصل بين الدعوى والواقع: أتوا بصيغ المؤكدات باللسان: ﴿آمَنَّا... وَأَطَعْنَا﴾، ثم جاء التعقيب بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على تراخي رتبة التولي وشناعته بعد دعوى الإيمان.

﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: نفى الإيمان باسم الفاعل وباء الاستغراق دلالةً على تجردهم الكامل من حقيقة الإيمان الثابت، فالدعوى القولية سقطت بالعمل.

والدعاوى إن لم يقيموا عليها * بينات أصحابها أدعياء

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾: مجيء ﴿إِذَا﴾ الفجائية يدل على سرعة نكوصهم وإعراضهم بمجرد الاستدعاء للتحاكم إلى شرع الله.

كما أنّ التعبير بـ ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: بصيغة الإفراد (مع أن الدعوة لله ورسوله)، دلالة على وحدة الحكم؛ فحكم الرسول هو عين حكم الله.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾، هنا المحك الأخلاقي والسلوكي: هذه الآية رسمت ببراعة "المصلحية النفعية" لدى المنافق. إن كان الشرعُ سيحكم لصالحهم أتوا ﴿مُذْعِنِينَ﴾ (خاضعين مسرعين)، لا تعظيماً للشرع، بل طمعاً في الحق!

يقول ابن القيم – رحمه الله -: "علامة المنافق أنه إذا كان الحق له تحاكم إلى الشرع، وإذا كان الحق عليه تحاكم إلى غيره". كما يبرز محمد قطب – رحمه الله - هنا ازدواجية المعايير والاحتكام للهوى لا للحق.

*﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

التقسيم السبر والتقسيم: الاستفهام الإنكاري يحصر دوافع هذا الإعراض في ثلاثة أدواء:

﴿مَّرَضٌ﴾: النفاق المتجذر. ﴿ارْتَابُوا﴾: الشك والتردد. ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عليهم ورسوله﴾: ظن الجور بالشرع والأحكام.

وجاء خوف الحيف في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: لمَّا كانتْ لَيْلتي التي هو عِندي -تَعْني: النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- انقلَبَ، فوضَعَ نعلَيْهِ عِندَ رِجلَيْهِ، ووضَعَ رداءَهُ، وبسَطَ طرْفَ إزارِه على فِراشِه، فلَمْ يَلْبَثْ إلَّا رَيْثَما ظَنَّ أنِّي قد رَقَدْتُ،

ثمَّ انتعَلَ رُوَيْدًا، وأخَذَ رِداءَهُ رويدًا، ثمَّ فتَحَ البابَ رويدًا، وخرَجَ وأَجافَه رويدًا، وجعَلْتُ دِرْعي في رَأْسي، واختمَرْتُ، وتقنَّعْتُ إزاري، فانطلَقْتُ في إثْرِهِ، حتَّى جاءَ البَقيعَ، فرفَعَ يدَيْهِ ثلاثَ مرَّاتٍ، وأطالَ القيامَ، ثمَّ انحرَفَ؛ فانحرَفْتُ، فأسرَعَ؛ فأسرَعْتُ، فهَرْوَلَ؛ فهَرْوَلْتُ، فأَحْضَرَ؛ فأحضَرْتُ، وسبَقْتُهُ، فدخلْتُ، فليس إلَّا أَنِ اضْطَجَعْتُ، فدخَلَ، فقال: ما لكِ يا عائشةُ حَشْيَا، رابِيَةً؟! قالتْ: لا، قال: لَتُخْبِرِنِّي، أو لَيُخْبِرَنِّيَ اللَّطيفُ الخَبيرُ، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، بأبي أنتَ وأُمِّي، فأخبرْتُهُ الخبرَ، قال: فأنتِ السَّوادُ الذي رأيْتُ أمامي؟ قالتْ: نعم؛ فلَهَدَني في صَدْري لَهْدَةً أوجَعَتْني، ثمَّ قال: أظنَنْتِ أنْ يَحيفَ اللهُ عليكِ ورسولُهُ؟ قلتُ: مَهْما يَكْتُمِ الناسُ، فقَدْ علِمَه اللهُ؟ قال: نعم، قال: فإنَّ جِبريلَ أتاني حينَ رأيْتِ، ولم يكُنْ يدخُلُ عليكِ، وقد وضعْتِ ثيابَكِ، فناداني فأَخْفَى مِنكِ، فأجبْتُه فأخفيْتُه مِنكِ، فظننْتُ أنْ قد رقَدْتِ، وكرِهْتُ أنْ أوقِظَكِ، وخَشِيتُ أنْ تَسْتوحِشي، فأمَرَني أنْ آتيَ البَقيعَ، فأَسْتغفِرَ لهم[1].

الرد الإضرابي ﴿بَلْ﴾: حسم القضية، فالسبب ليس في الشريعة ولا في رسولها، بل العلة في نفوسهم الظالمة: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (باستخدام صيغة الحصر والتوكيد).

أدب المؤمن الصادق والاستسلام للشرع: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وفي هذا مقابلة للمشهد السابق بـ ﴿إِنَّمَا﴾ الحاصرة؛ فموقف المؤمن الصادق لا يتجزأ ولا يخضع للمصلحة، كما أن فيه تعريض بالمنافقين، وتحريض لهم أن يقتدوا بالمؤمنين؟

﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: التعبير جاء بالمضي لسرعة وحتمية الاستجابة، أي: سمعنا وطبّقنا مباشرة.

النتيجة: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أداة الحصر والتعريف تخصص الفلاح الكامل بهؤلاء المنقادين.

*﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، التدرج البياني والسلوكي:

جمع الله في هذه الآية مقومات الفوز الأربعة مرتبة تدريجياً: طاعة الله ورسوله: الجوارح والعمل الظاهر، وخشية الله: عمل القلب مما مضى من الذنوب والهيبة، والتقوى: الحذر مما يستقبل من الأعمال وترك المحرمات، زأخيراً النتيجة: ﴿الْفَائِزُونَ﴾؛ والفوز هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

---

1 - أخرجه النسائي (2037)، واللفظ له، ومسلم (974)، وأحمد (25855)، وابن شبة في ((تاريخ المدينة))، باختلاف يسير. وصحح الألباني إسناده.

تعرية الأيمان الكاذبة وحقيقة الطاعة: *﴿۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

إشراقة بلاغة والإيجاز: المنافقون يلجأون للمبالغة في القسم ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ لتغطية النقص الباطني.

جاء الرد القاطع والردع السريع: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾؛ فالإيمان لا يحتاج إلى استعراض ومبالغات قولية.

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾: إيجاز بحذف الخبر أو المبتدأ (أي: المطلوب منكم طاعة معروفة صادقة، لا أيمان مغلظة فارغة).

أو أنّه أسلوب تهكمي فادعاءهم الطاعة معروف، كما في قوله تعالى: (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) [آل عمران:168].

الختم باسم الله ﴿خَبِيرٌ﴾: فيه تهديد لطيف ومباشر، فالخبائر والسرائر مطلع عليها سبحانه.

*﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

التحليل البياني والسياقي: تكرار الأمر ﴿أَطِيعُوا... وَأَطِيعُوا﴾: للتأكيد على استقلالية طاعة الرسول فيما يسنّه ويشرعه.

توزيع المسؤولية ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾: تقسيم لساني بديع للمسؤولية؛ على الرسول البلاغ والأداء، وعليكم الاستجابة والانقياد.

الشرط والجواب ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾: جعل الهداية علة ومسبّباً عن طاعة النبي ﷺ لا تتقدم ولا تتأخر عنها.

القانون الإلهي: قانون التمكين والاستخلاف: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

تُعدّ هذه الآية "قاعدة التمكين الكبرى" في القرآن، وهي ثمرة ونتيجة الطاعة والتحاكم المذكور في الآيات السابقة.

التركيب اللغوي والبلاغي: تصريحات وتأكيدات متتالية بثلاثة أفعال مسبوقة بلام القسم ومختومة بنون التوكيد الثقيلة: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، هذا التوكيد الثلاثي يقطع كل شك في تحقق وعد الله إذا تحققت الشروط.

شروط التمكين وأركانه: الشرط الأول والأساس: الإيمان والعمل الصالح ﴿آمَنُوا... وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

الشرط الثاني والغاية: العبادة الخالصة والتجرد من الشرك ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

ويفسر شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهما الله – هذه الآية باعتبارها "قانوناً إلهياً مطرداً" يُربط فيه بين صلاح الباطن والظاهر وبين موازين القوة والعزة في الأرض.

مفهوم التمكين والاستخلاف وطبيعتهما عند الشيخين: يوضح ابن تيمية (في مجموع الفتاوى ومنهاج السنة) أن التمكين والاستخلاف يختلف عن مجرد "غلبة عسكرية" أو "تسلط سياسي"؛ فالكفار والجبابرة قد يملكون الأرض ويحكمونها، لكن هذا يسمى "إملاءً واستدراجاً" لا "استخلافاً وتمكيناً مرضياً".

أمّا معنى التمكين المرضي لله سبحانه والموهوب منه: هو قدرة الأمة على إقامة دين الله، وأمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع بسط العدل وأمن النفوس، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:41].

ولا بد من التلازم بين الدين والقدرة: كما يقرر ابن القيم – رحمه الله - (في إعلام الموقعين وإغاثة اللهفان) أن التمكين الحقيقي هو تمكين "الدين" أولاً: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾؛ فإذا مُكّن الدين في القلوب والجوارح، أتبعه الله بتمكين أهله في الأرض.

شروط التمكين وأركانه الذاتية: حصر الشيخان تحقق وعد الله بالتمكين في أربعة شروط رئيسية نصت عليها الآية:

أ. شرط الإيمان والعمل الصالح (المنهج والشرعة): ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾:

يُبيّن ابن تيمية أن الإيمان عند أهل السنة قول وعمل؛ فمجرد الدعوى القولية أو الانتساب الجغرافي والإسمي للإسلام لا يحقق الوعد.

العمل الصالح: هو ما كان خالصاً لله وصواباً على سنة رسوله ﷺ. ويرى ابن القيم أنّ الأمة إذا فرطت في سنتها وطاعتها، تخلّفت عنها سنن النصر بحسب مقدار هذا التفريط.

كذا شرط التوحيد الخالص ونفي الشرك (أصل العبودية): ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾:

تقع هذه الجملة موقع "العلة" و"الغائية" للتمكين، يقول ابن تيمية – رحمه الله -: "الله إنما خلق الخلق ليعبدوه، وإنما استخلفهم في الأرض ليقيموا عبادته". فالشرك -سواء كان شركاً جلياً في الألوهية أو شركاً خفياً باتباع الأهواء والقوانين المناقضة للشرع- هو القاطع الأعظم لسبب التمكين.

كما ينبه ابن القيم – رحمه الله - إلى أنّ تنكير كلمة ﴿شَيْئًا﴾ في سياق النفي؛ يؤكد شمول الخلاص من كل أنواع الشرك: الشرك في المحبة، والخوف، والرجاء، والتحاكم، والتشريع.

الأحكام والسنن المترتبة على الآية: سنة الابتلاء قبل التمكين، من أهم اللمسات الفكرية عند ابن القيم – رحمه الله - في (زاد المعاد) تفسيره لقول الشافعي عندما سُئل: "أيهما أفضل للمرء: أنْ يُمكَّن أو يُبتلى؟ فقال: لا يُمكَّن حتى يُبتلى".

يؤكد ابن القيم – رحمه الله - أنّ الخوف والضعف اللذين أشارت إليهما الآية: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ هما مرحلة تمحيص ضرورية. فالابتلاء يُصفي الصف المؤمن من المنافقين وأصحاب المصالح الضيقة، فإذا محص الصف واستوى على العبودية جاء الأمن والتمكين.

وفي الآية اطراد السنة التاريخية: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: يشير ابن تيمية – رحمه الله - إلى أن استخدام كاف التشبيه يدل على أن سنن الله في البشر سنن قانونية ثابتة لا تتخلف. فكما أورث الله الأرض لبني إسرائيل بعد صبرهم وإيمانهم وطاعتهم لضرورات التوحيد على عهد موسى والأنبياء بعده، وكما مكن للصحابة بعد الضعف بمكة، كذلك يحدث مع كل جيل أخذ بنفس الأسباب.

التمكين مرتهن بالاستمرار على الشرط: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِك فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾:

يحذر ابن تيمية – رحمه الله - من أنّ التمكين ليس عقدًا أبدياً مجرداً عن العمل، بل هو عقد مشروط. فإذا زال الشرط (التوحيد والعمل الصالح) وزالت الطاعة، ونكثت الأمة غايات استخلافها، فإن سنّة "الاستبدال" و"الإدالة" تُفعّل عليها، فيُسلط عليها الأعداء ويُسلب منها الأمن.

الخلاصة الفكرية عند الشيخين – رحمهما الله -: إن آية التمكين عندهما ليست مجرد وعد تاريخي يخص عصر الصحابة رضي الله عنهم -وإن كان نزولها وتطبيقها الأولي فيهم أظهر ما يكون-، بل هي معادلة إيمانية حضارية متجددة:

فمتى ما حققت الأمة مقدمات هذه المعادلة بالقيام بالدين عِلماً وعملاً وتحاكماً، أنجز الله لها وعده المستمر إلى قيام الساعة.

كما يوضح سيد قطب ومحمد قطب – رحمهما الله أنّ الاستخلاف أو سنّة الاستخلاف إنما هي لإقامة منهج الله ولدينه ﴿الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، فإذا غاب التوحيد أو ساءت الطاعة سُحب التمكين.

التشابه التاريخي: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دلالة على أن التمكين سنة إلهية جارية عبر التاريخ وليست مصادفة عارضة.

لوازم الاستخلاف ومصير المعاندين: *﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (56)

إشراقة الربط البلاغي: بعد الوعد العظيم بالاستخلاف، لم يتركهم الله جل وتعالى للأماني بل أعادهم إلى "وسائل العدة الإيمانية": الصلاة (صلة مع الله)، الزكاة (تكافل واجتماع)، وطاعة الرسول (انضباط ومنهج).

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: الرحمة هنا هي غطاء الفلاح الذي يتنزل به التمكين وتستقر به الحياة.

*﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

البلاغة والدلالة النفسية:

الخطاب موجه للنبي ﷺ ولأهل الإيمان، فيه نهي مؤكد عن المظاهر والتحسبات الخاطئة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾.

﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي لن يفوتوا الله ولن يعجزوا قدرته، ومهما بلغت قوهم الظاهرة وطغيانهم فهم في قبضة الله.

المآل: انتقل من بيئة الأرض التي يظنون فيها القوة إلى بيئة الآخرة ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، للتأكيد على الشقاء الحتمي المترتب على الإعراض والكفر.

الخلاصة: إن هذه الآيات ترسم في النهاية صورة متكاملة للمجتمع المسلم الصحيح؛ فصلاح المجتمع وعزته ليس بشعارات القول وأقسام النفاق، وإنما بحسن الانقياد لحكم الله ورسوله ظاهرًا وباطناً، وعندها فقط ينزل الوعد الإلهي بالاستخلاف والتمكين في الأرض.

*(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(58) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ

فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59)وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(61) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (62) لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(64)

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس الأخير هي ختام سورة النور، وهي السورة التي أُسِّسَت أركانُها على صيانة المجتمع، وبناء الآداب الاجتماعية، وتزكية النفوس، وحماية العورات.

استئذان الخاصّة وتنظيم الخلوات: *﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ...﴾

إشراقة بلاغية: السياق: بعد أن بَيّنت السورة استئذان الأجانب في مطلعها، جاء النظمُ هنا ليُنظّم استئذان أهل البيت الداخليين (المماليك والأطفال)، حمايةً للبصر وللحياء.

الأسلوب والإيجاز: عبّر بـ ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ بالرفع، وهي من بدائع الإيجاز، أي: هذه الأوقات هي ثلاث عورات (أوقات تَعَرٍّ وتَخَفُّف من الثياب).

معاني الأوقات: ﴿من قبل صلاة الفجر﴾: وقت الاستيقاظ والتبديل. ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾: وقت القيلولة والراحة. ﴿من بعد صلاة العشاء﴾: وقت النوم والاسترخاء.

التعليل اللطيف: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ رفعٌ للحرَج وتأطيرٌ للمشقة؛ فلما كانت طبيعة حياتهم الملازمة والحركة المستمرة، خفّف الله عنهم بدلاً من الاستئذان في كل وقت، وميّز لهم هذه الأوقات الثلاثة فقط.

نكتة تدبرية: التعبير بـ ﴿طَوَّافُونَ﴾ فيه إشارة إلى كثرة الدخول والخروج التي تجعل الاستئذان الدائم شاقاً، فجاء التشريع الإسلامي لِيُوافق الفطرة ويجمع بين رفع المشقة وصيانة العورة.

التكليف الشامل ببلوغ الحُلُم: *﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾

إشراقة بلاغية: الانتقال الأسلوبي: انتقلت الآية من حكم "الصبية" إلى حكم "البالغين".

للتأكيد على تغير التكليف: لم يُعد الاستئذان مقصوراً على الأوقات الثلاثة، بل أصبح عاماً في كل وقت ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، لأن العقل والمُدركات اكتملت، ودواعي النظر والتطلع استيقظت.

التختيم: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ عليم بما يصلح لمراحل نمو الإنسان النفسية والجسدية، حكيم في تشريعه لكل مرحلة ما يناسبها.

رخصة القواعد وتلطيف الأحكام: *﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ والله سميع عليم﴾

إشراقة بلاغية: المفردات: "القواعد" هن اللاتي قعدن عن الطمث والجماع لكبر السن.

الشرط البياني: أباح التشريع لهنّ التخفف من الجلباب/الرداء الظاهر، لكنه قيّده فوراً بـ ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾؛ حبراً ووقاية، كي لا يُتخذ كبر السن ذريعة للاستهانة بستر الزينة.

الاستعفاف والاستعلاء: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾؛ لمسة تربوية جليلة؛ فالترخيص موجود، ولكن الكمال والأفضلية في العفاف المطلق والستر الأكمل.

نكتة تدبرية: "الإسلام لا يكتفي بالحدود القانونية، بل يربط المظاهر الخارجية بضمير الإنسان وشعوره بالتقوى والكمال، ولذا كان الاستعفاف خيراً حتى للاتي قعدن عن النكاح".

رفع الحرج وتآلف القلوب في الأكل والبيوت: *﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ...﴾

ذوو الأعذار (الأعمى، الأعرج، المريض) -> رفع الحرج عنهم في المشاركة والمؤاكلة

رفع الحرج والتقارب ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ ذوو القربى والأصدقاء -> الأكل من بيوتهم للإنبساط وزيادة المودة

السلام عند الدخول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾

إشراقة بلاغية: التماسك الاجتماعي: جمعت الآية أسباب الحرج التي كانت تقع في نفوس أصحاب العاهات (الأعمى والأعرج والمريض) الذين كانوا يستحيون من أكل الطعام مع الأصحاء، فأزالت الحرج عن الجميع.

سرد البيوت القريبة: تتابعت الآية في عدّ بيوت الأقارب (الآباء، الأمهات، الإخوان، الأخوات، الأعمام...) لترسيخ مبدأ الرفع المطلق للكلفة بين الذرية والأرحام والمُصادقين.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنَّ فاطِمةَ عليها السَّلامُ شَكَت ما تَلقى مِن أثَرِ الرَّحا، فأتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَبيٌ، فانطَلَقَت فلَم تَجِدْه، فوجَدَت عائِشةَ فأخبَرَتها، فلَمَّا جاءَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخبَرَتْه عائِشةُ بمَجيءِ فاطِمةَ، فجاءَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلينا وقد أخَذنا مَضاجِعَنا، فذَهَبتُ لأقومَ، فقال: على مَكانِكُما. فقَعَدَ بينَنا حتَّى وجَدتُ بَردَ قدَمَيه على صَدري، وقال: ألا أُعَلِّمُكُما خَيرًا ممَّا سَألتُماني؟ إذا أخَذتُما مَضاجِعَكُما تُكَبِّرا أربَعًا وثَلاثينَ، وتُسَبِّحا ثَلاثًا وثَلاثينَ، وتَحمَدا ثَلاثًا وثَلاثينَ؛ فهو خَيرٌ لَكُما مِن خادِمٍ [1].

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾: أدخلت الآية الصديق في مقام الأقارب، اعترافاً بقيمة الصداقة الصادقة التي تزيل الحواجز، ولكل أحكامه وحدوده الخاصة.

ختام التحية: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾:

جعل سلامك على أخيك المسلم سلاماً على "نفسك" لشدة الرابطة والوحدة (كأنكم جسد واحد).

وصَف التحية بأنها من عند الله، مباركة (تزيد الخير) وطيبة (تطيب بها النفوس).

أدب الجماعة والقيادة مع الرسول ﷺ: *﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ...﴾

1 - أخرجه النسائي (2037)، واللفظ له، ومسلم (974)، وأحمد (25855)، وابن شبة في ((تاريخ المدينة))، باختلاف يسير. وصحح الألباني إسناده.

إشراق بلاغية: قصر حصر الإيمان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ...﴾ صيغة قصر تُفيد أن كمال الإيمان لا يتحقق إلا بالانضباط والالتزام بالقيادة في الأمور العامة ("أمر جامع" كالجهاد، والجمعة، والمشورة).

أدب الاستئذان العام: كما نظمت السورة استئذان البيوت الداخلية، تنهي السورة بتنظيم استئذان المجتمع مع القيادة النبوية.

الرحمة والتيسير النبوي: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾؛ فوّض الله الاستئذان لتقدير النبي ﷺ، مع أمره بالاستغفار لهم احترازاً من أن يكون انصرافهم بسبب ضعف في النية.

تعظيم المقام النبوي والتحذير من المخالفة: *﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

إشراقة بلاغية: معنيان جليلان لـ ﴿دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾: الأول: نداؤكم له: لا تنادوه باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً (يا محمد)، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله.

الثاني: دعاؤه عليكم أو لكم: احذروا أن يدعو عليكم الرسول ﷺ بترككم أمره فتهلكوا.

وهنا ما يسميه البلاغيون الاستعارة في ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾: صورة بلاغية حية للمنافقين الذين ينسلون خفية وملاوذةً بغيرهم للهروب من الغزوات أو الجمعات.

التحذير الخالد: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ الفتنة هنا هي الشرك، أو زيغ القلوب، أو الشبهات التي تمحق هداية الإنسان لإعراضه عن أمر الرسول ﷺ.

والعلماء يتأولون هذه الآية في مخالفة السنة عموماً: حكى عياض عن سفيان بن عيينة :أنه قال : " سألت مالكا عمن أحرم من المدينة وراء الميقات ؟ فقال : هذا مخالف لله ورسوله ، أخشى عليه الفتنة في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة ، أما سمعت قوله تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) ! وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يهل من المواقيت . "

وحكى ابن العربي عن الزبير بن بكار ، قال : " سمعت مالك بن أنس ، وأتاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله !من أين أحرم ؟ قال : من ذي الحليفة ، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني أريد أن أحرم من المسجد . فقال : لا تفعل ، قال : فإني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر ، قال : لا تفعل; فإني أخشى عليك الفتنة ، فقال : وأي فتنة هذه ؟ ! إنما هي أميال أزيدها ، قال : وأي فتنة

أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! إني سمعت الله يقول : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) [1].

ختام السورة والملكوت المطلق: *﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

إشراقة بلاغية: أداة التنبيه ﴿أَلَا﴾: استهلال يسترعي الانتباه واليقظة لعظمة الخاتمة.

الرد إلى الملك والشهود: تذكير بأن الشرائع والآداب المذكورة في السورة ليست مجرد قوانين مجردة، بل هي صادرة من المالك الحقيقي للكون الذي يعلم ظواهركم وبواطنكم ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾.

الربط بالنهاية: ختمت السورة بالعلم والجزاء الأخروي ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ ليظل الشديد والرقيب الذاتي حياً في قلب المؤمن في كل أفعاله واستئذانه وعلاقاته.

---

1 - انظر الإمام الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي: الاعتصام (ج1/ص175). وموقع إسلام ويب.

المراجع